

مَدَرِسَةُ أَبْيَانِ تَمَّامٍ

بَيْنَ قَدَامِ الْمُولَدِينَ وَالْمُتَأْخِرِينَ

عبد المتعال الصعيدي

الأستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهرية

الناشر

مَكْتَبَةُ الْقَاهِرَةِ

بِالصَّنَاطِيفِ الْأَزْهَرِيَّةِ

اصْحَاحُهَا عَلَى يُوسُفَ سَلِيمَانَ

مَدَرِسَةُ الْمَيَّاْمِ

بَيْنَ قَدَامِ الْمُولَدِينَ وَالْمُتَأْخِرِينَ

تأليف

عبد المتعال الصعيدي

الأستاذ بكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية

يطلب من الناشر

مَكَتبَةُ الْقَاهْرَةِ

لصاحبيها: على يوسف سليمان
شاعر الصناديق - بسيط الأزهر بعد



مَكْتَبَةُ إِسَارَالْعَرَبِ

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ما قدر كان ، وما لم يقدر لم يكن ، والصلوة والسلام على
رسوله محمد المصطفى من العرب لجميع الأمم .

وبعد : فهذا عصر من عصور الأدب العربي ، أردت أن أضع فيه
كتاباً بهذا الإسم (مدرسة أبي تمام بين قدامي المولدين والمؤخرين)
على نحو ما اخترت من الأسماء للعصور الأدبية السابقة على هذا العصر
إذ كان كل اسم منها يشعر بميزة عصره وطابعه ، ويشير إلى الأساس
الذى ستقوم عليه دراسته ، ليكون نهجاً جديداً في تقسيم عصور
الأدب العربي يقوم على أساس طابع كل عصر وميزة ، لا على ماجرى
عليه مؤرخو الأدب العربي من مراعاة الأحداث التاريخية أو السياسية
في تقسيم عصوره فاستقامت لى بهذا دراسة أربعة عصور بهذه الأسماء :

- (١) النهضة الأدبية قبل الإسلام .
- (٢) الإصلاح الإسلامي في أدب صدر الإسلام .
- (٣) الرجمية الأدبية في العصر المرواني .
- (٤) الثورة الأدبية لقدامي المولدين .

ثم شرعت في دراسة عصر هذا الكتاب (مدرسة أبي تمام بين
قدامي المولدين والمؤخرين) وأنا لا أزال أشتغل بالتدريس في

الجامع الأحمدي ، وكان من بين ما أدرسه فيه تاريخ الأدب العربي ، ولم أكد أبدأ فيه حتى نقلت إلى كلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر ، فتحقق بهذا أكبر أمنية لي ، وهي الانتماء بمحالات العلم الواسعة في القاهرة ، لأكون أقدر على تأدية رسالتي الإصلاحية .

فكان لهذا أثره في تغيير مجرى أفكارى ، وفي الانصراف عن إتمام هذه السلسلة في تاريخ الأدب العربي إلى عصرنا الحديث ، كما كنت أقدر لها حين شرعت فيها ، لأنى وجدت خيراً في رسالتي الإصلاحية أهم منها فيها ، وأولى بالتقديم عليها ، ففضيت في هذا مامضيت ، ووضعت فيه من الكتب ما وضعت ، ونشرت في الجرائد والمجلات من البحوث الدينية والعلمية والأدبية ما نشرت .

ثم عدت أخيراً إلى النظر فيها وضعيتها في تاريخ الأدب العربي من السلسلة السابقة ، فهذبت فيه بعض التهذيب ، ورأيت أن أقتصر على ما كتبته في العصر الذي وصلت إليه ، وأن أجعله كتيباً صغيراً في ذيل الكتب التي وضعتها قبليه ، لأرشد به إلى الأساس الذي يجب أن تقوم عليه دراسة عصره ، ولعل الله تعالى يهوى هذه السلسلة من يتمها بعدي ، ويجرى فيها على هوى إلى أن يصل إلى العصر الحديث الذي كنت أريد أن أختتمها به .



مدرسہ الی تمام

خصائص مدرسة أدي تام :

عمل قدماء المولدين من الفرس على تقريب الشعر من لغة التخاطب ، وكان هذا بعد أن مضى على لغة التخاطب أكثر من قرن بعد ظهور الإسلام ، إذ اختلط العرب بعدهم بغيرهم من الشعوب ، وتأثرت لغة التخاطب بذلك أكبر تأثير ، فرأوا أن يدخل في الشعر من السهو له ما يدريه من لغة التخاطب ، ورأوا أنه لا يصح أن يبقى في ألقابه الغريبة على الناس بعد تغيير ظروفهم وأحوالهم ، وهذا ما سميت بالثورة الأدبية لقدماء المولدين .

وكان لهذه الثورة مناهضون يتعصّبون لقديم الشعر ، ويرون أنه يجب أن يبقى في لغته الخاصة به ، وإن بعد بها عن لغة التخاطب وإن صار غير مفهوم إلا لعلماء الأدب الذين يعرفون دقائق اللغة القديمة للعرب ، ولكنهم لم يقووا على مقاومة القائمين بهذه الثورة من أمثال أبي العتاهية وبشار بن برد ، إلى أن ظهر أبو تمام في بيته عريبة خاصة من بلاد الشام ، فتأثر بنشأته فيها ، وعمل على أن يكون للشعر لغته الخاصة به ، لتبقى له منزلته الرفيعة في الأدب ، ولا يتسرّر إلا من يعلو بنفسه إلى هذه المنزلة الرفيعة ؛ حتى لا يكون في متناول كل من هب ودب ، وحتى يستأثر به خاصة الناس دون عامتهم ،

وكان هذا مما دعاه إلى اختيار ما اختاره في كتابه (ديوان الحماسة) من أشعار فحول الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، ليحفظها ويترنّع عليها من يريد قرض الشعر، ويحرر على طريقتها في إشار للفظ الفخم، والمعنى الذي يعلو على فهم جمهور الناس.

ثم إن لم يكفيه هذا في إبعاد الشعر عن لغة التخاطب، بل وأضاف إليه أمراً جديداً يجعله أدخل في باب الصناعة الشعرية، من الإكثار فيه من الحسنات البدعية، وإخضاعه لها إلى الحد الذي تطغى فيه على أسلوب الشعر، فتجعل منه أسلوباً بدعياناً يؤثر فيه اللفظ على المعنى وتبعده عن أن يكون له في الناس رسالة إصلاحية.

وكان لهذه المدرسة شعراء شارعوا فيها أباً تمام، وناصروه عليها في حياته وبعد وفاته، ومن أشهر من شارعوا فيها تلميذه البحتري، وابن المعتز، وأبو الطيب المتنبي، وأبو العلاء المعرى، وغيرهم عمل على الرجوع بالشعر إلى لغته الخاصة به وإن عمل أبو العلاء على أن يكون لشعره رسالة إصلاحية أيضاً، ولكنه جنى عليها بوضعيتها في ذلك الإطار الذي بعد بها عن العامة، فلم يكن لها أثراً بينهم، على ما كان فيها من قوة ونبل.

وكان أكثر الذين شارعوا مدرسة أبي تمام من عناصر عربية صميمة، مما يدل على أنه كان لعنصرية أثرها في مشايخة هذه المدرسة، وكذلك يلاحظ أن هذه المدرسة - ولا سيما زعماءها الثلاثة أباً تمام والبحتري والمتنبي - هي التي زودت علوم البلاغة بأكثر شواهدها الشعرية، فلا تجد لغير الثلاثة من الشعراء الذين سبقوهم

مثل مالم من هذه الشواهد ، لأنهم حينما قصدوا إلى الرجوع بالشعر إلى أسلوبه القديم استعنوا في ذلك بلوازمه من فنون البلاغة حتى تزاحمت في أشعارهم عالم تزاحم به أشعار من قبلهم ، ولأمر ما عنى علماء الأدب بهؤلاء الشعراء الثلاثة ، وشغلوا بدراسة أشعارهم وبالموازنة بينهم ووضعوا في ذلك من الكتب مالم يضعوه في غيرهم لأنهم وجدوا في أشعارهم بغيتهم من فنون البلاغة ، ووجدوا فيها ما يساعدهم على تدوينها وتوسيعها ، وعلى أن يصلوا فيها إلى الحد الذي تكاملت فيه وانقسمت إلى علومها الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

وبهذا كله ساغ لي أن أجعل لهذه المدرسة عصرا من عصور تاريخ الأدب العربي ، يتميز عن غيره من العصور بهذه الميزة التي امتازت بها ، والتي كان الفضل فيها لزعيمها الأول – أبي تمام – لا لحدث من الأحداث التاريخية أو السياسية .

ولابد لي مع هذا أن أشير إلى أن القاضى الجرجانى قد سبق إلى شيء قريب من هذا في أمر أبي تمام ؛ ليكون لى سندًا فيما أراه من ذلك ، وله فيه كلام نفس أنقله هنا على طوله لمناقشته ، وقد جاء في كتابه المشهور : (الوساطة بين المتنبى وخصومه) :

قال فيها كان من أصر الشعراء قبل أبي تمام ، وهم الذين ، سميتهم قدامى المؤلدين :

كانت العرب ومن تبعها من السلف تجرى على عادتها في تفخيم اللفظ وجمال المنطق ، لم تألف غيره ، ولم تأنس سواه ، وكان الشعر أحد منطقتها ، ومن حقه أن يختص بفضل تهذيب ، ويفرد بزيادة

عنابة ، فإذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة ، وانضاف إليها التعلم والصنعة ، خرج كما تراه فيخا جزلا ، قوياماً مقيينا ، وقد كان القوم مختلفون في ذلك وتباين فيه أحواهم ، فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوغر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب المخالق ، فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبيع ، ودمامات الكلام يقدر دماماتة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كفر اللفظ ، معقد الكلام ، وعمر الخطاب ، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي ﷺ «من بدا جفا» ولذلك تجد شعر عدى وهو جاهلى^(١) أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما إسلاميان ، ملازمة عدى الحاضرة وإيضاً أنه الريف ، وبعده عن جلافة البدو وجفاه الأعراب ، وترى رقة الشعر أكثر ما تأثيرك من قبل العاشق المتعيم ، والغزل المتهالك ، فان اتفقت لك الدمامات والصباية ، وانضاف الطبيع إلى الغزل ، فقد جمعت لك الرقة من أطراها .

إلى أن قال :

فلمما ضرب الإسلام بحرانه^(٢) واسعـت ممالكـ العرب ، وكثـرتـ الحـواضـرـ وزـعـتـ الـبـوـادـيـ إـلـىـ القرـىـ ، وـفـشاـ التـأـدـبـ وـالتـظـرفـ ،

(١) يعني عدي بن زيد المبادي من شعراء الحيرة

(٢) الجران في الأصل متدم عنق البعير . يعني بهذا استقرار الإسلام . كيـ يـقالـ أـلـيـ البعـيرـ جـراـنهـ أـيـ برـكـ .

اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ، وعمدوا إلى كل شيء ذي اسهام كثيرة فاختاروا أحسنها ممما ، وألطفها من القلب موقعها ، وإلى ما للعرب فيه لغات فأقتصر واعلى أسلسها وأشرفها ، وتجوزوا الخد في طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن ، وحق خالطهم الركاكه والعجمة ، وأعانهم على ذلك لين الحضارة ، وسهلة طباع الأخلاف فانتقلت العادة وتغير الرسم ، وانتسبت هذه السنة ، واحتذوا بشعرهم هذا المثال ، وترفقو ما أمكن وكسوا معانיהם ألطاف ما سمح من الألفاظ فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبيّن فيها اللين فيظن ضعفا ، فإذا أفردت عاد ذلك اللين صفاء ورونقها ، وصار ما تخيلته ضعفا : رشاقة ولطفا .

ثم قال في أمر أبي تمام وهو بيت القصيدة :

فإن رام أحدهم الإغراب والاقتداء عن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما رايه إلا بأشد تكلف ، وأتم تصنع ، ومع التكافل المقت وللنفس عن التصنع نهرة ، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرونق وإخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سببا لطمس المحسن ، كالذى نجده كثيرا في شعر أبي تمام ، فإنه حاول من بين المحدثين (١) الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توغير في اللفظ وتبجح في غير موضع من شعره فقال :

فكأنما هي في السباع جنادل و كأنما هي في القلوب كواكب (٢)

(١) م المؤلدون .

(٢) الجنادل : الصخور . ويعني بأنها كواكب يبعدها من الأفهام .

فتعسف ما أمكن ، وتنغاعل في التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البدع ؛ فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب ، ولم يرض بهما تين الخاتمين حتى اجتذب المعانى الفامضنة وقصد الأغراض الخفية ، فاحتتمل فيها كل غث ثقيل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إنعاكب الفكر ، وكد المخاطر .

إلى أن قال :

ولست أقول هذا غضا من أبي تمام ؟ ولا تهجينا لشعره ،
ولا عصبية عليه لغيره ؛ فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديره ؟ وأنتحل
موالاته ونعطيه ؛ وأراه قبلة أصحاب المعانى ، وقدوة أهل البدع
لكن ما سمعتني في أول هذه الرسالة أنه يحظر إلاباع الحق ، والحكم
به لم أوعلي ، وما عدلت في هذا الفصل قافية أبي تمام ، ولا خرجت
عن شرطه ؛ إذ يقول في يوسف السراج شاعر مصر في وقته :

فلو نيش المقابر عن زهير	لعول بالبكاء وبالنحيب (١)
مق كانت معانيه عيلا	على تفسير بقراط الطبيب (٢)
وكيف ولم يزل للشعر ماء	يرف عليه ريحان القلوب

(١) يعني زهير بن أبي سلمي ، والنحيب : رفع الصوت بالبكاء ، وعول : رفع صوته بالبكاء أيضا . فهو تأكيد

(٢) عيلا على تفسير بقراط : أي يعلق في تفسيرها . وبقراط فيسوسوف يوناني وطبيب .

نخبرني هل تعرف شعر أحوج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطو
ليس من قوله :

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء (١)

وقوله :

يوم أفاض جوى أغاض تعزيا
خاض الموى بحرى حجاج المزبد (٢)
ثم ساق كثيرا من أمثال ذلك في شعره ، وتنى لو حذف منه
حتى يقطع السن العيب فيه .

فالقاضي الجرجاني يذكر في هذا أن أبا تمام انفرد وحده من بين
المحدثين بهذه الطريقة التي جعلتها مدرسة له ، وأنه عبد إليها تقليدا
للاوائل من الشعراء ، وأنه خرج بهذه عمن سبقه من المحدثين ؛
ولكنه لا يجعل من هذا مدرسة شاعره فيها من شاعره من الشعراء في
حياته وبعد مماته ، حتى غلت على الشعر بعده ؛ وأخذت بهذا عصرا
من عصور تاريخ الأدب العربي ، وإنما لم يتتبه إلى هذا لأن دراسة
تاريخ الأدب دراسة حديثة في عصرنا ، ولها فضل تنبيهي إلى هذا
مما لم يتتبه له القاضي الجرجاني .

(١) جهمية الأوصاف يعني المخر . وجهم من المعتلة القائدين بنفي الصفات .
يقول إنها وقت حتى لا ترى فتوصف وخرجت عن أن تكون عرضا أو
جوهرا . فهي جديرة بأن تكون أصل الموجودات كلها .

(٢) هو من قصيدة له في مدح المؤمن وكان في غزو الروم . أفاض جوى :
أسال بكثرة . والجوى شدة الوجد من عشق ونحوه . أغاض تعزياً أذهب سلوا
والحججا العقل . ويعنى أن الهوى غالب عليه على العقل .

على أنى مع هذا أعيب على أبي تمام طريقته في ذلك من أولها إلى آخرها ، وأجعل من أخذه بتقليد الأوائل من الشعراء حرفة رجعية في تاريخ الأدب العربي ، والقاضي الحرج أن يخالفني في كل هذا ويدين بتفضيل أبي تمام ونديه ، وينتقل مواليه وتعظيمه ، وبجعله قبلة أصحاب المعانى ، وقدوة أهل البديع ، ولا يعيّب عليه إلا بعض أشعار سالم فيها سبيل الفوضى والتعقيد ، وتنهى لوحذفت من شعره حتى يقطع السنة العيب عنه ؛ وإن كان كلامه قبل هذا يفيد أن ذلك طريقة عامة في شعره ، مما يجعل رأيه مضطربا فيه .

فليس لمدرسة أبي تمام بعد انحرافها عن طريق التجديد إلى طريق التقليد إلا حافظتها على قوة الشعر ونخامته ، وإلا أنها أنجحت شعراء يكادون يصا هون أوائل الشعراء في قوة الشعر ونخامة النظم ، من أمثال البختري وابن المعتز والمتين وأبي العلاء المعري ، وغيرهم من شعراء هذه المدرسة ، وأكثر شعراء كتاب اليتيمة للشاعر من شعرائها ، وهم أحسن من يمثلها من يريد دراسة تاريخها الأدبي ، واستيفاء مباحثتها على نمط دراستي لغيرها من العصور الأدبية ، ومعرفة أثرها فيها من أولها إلى آخرها ، ويكتفي هنا أنى يمتد معالم الطريق لدراستها ، وأنى ابتكرت الفكرة ، ومهدت لمن يمضى فيها إلى نهايتها .

ولا يفوتنى بعد هذا أن أنه إلى أن هذه المدرسة مكثت تؤدي رسالتها التقليدية ، وتحفظ للشعر قوته ونخامة لفظه ، إلى أن استعجمت الدولة الإسلامية في المشرق ، بعد سقوط الدولة العباسية

في أواسط القرن السابع المجري ، إذ قامت فيه دول من التتر والترك لايهمها أمر اللغة العربية ، كما كان شأنها في عهد الدولة العباسية ، وقد أمكن الدولة العثمانية التركية بعد هذا أن تستولى على أكثر البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب ، وأن توحد بهذه الدولة الإسلامية إلا قليلاً من أطرافها النائية ، ولكنها جعلت لغتها التركية لغة الدولة بدل اللغة العربية ، وفرضت تعليمها في جميع بلادها حتى البلاد العربية ، فانحط شأن اللغة العربية بين الناطقين بها ، وانحط أدبها من شعر ونثر ، حتى طفت عليه الأساليب العامية ، وصار إلى غاية من الضعف والركاكة .

ولم يزل هذا شأنها إلى أن ظهرت النهضة الحديثة في عصرنا ، فأخذ المخلصون للغة العربية ينهضون بها وبآدابها ، ويعملون على أن يصلوا بشعرها ونثرها إلى ما كان له من القوة والفحامة ، على أن يكون هذه في الحدود المعقولة ، ولا يصل إلى درجة تبعده عن لغة التخاطب ، كما كان شأن قدمي المولدين قبل ظهور أبي تمام ومدرسته وقد وصلوا في هذا إلى غاية رفعت من شأن اللغة العربية ، وجعلتها تساير النهضة الحديثة في العلوم والآداب ، فجزاهم الله عنها أحسن ثواب .

أولى شعراء هذه المدرسة بالزعامة :

ولابد لي هنا من بيان الرعيم الأول لهذه المدرسة ، لأنه قد يتوجه من نسبتها إلى أبي تمام أنه زعيمها الأول ، وهو رأى جمهور من العلماء يتعمّب له على غيره من الشعراء ، ولكنه لا يصلح عندي

لزعامة هذه المدرسة ، كما لم يصلح قبله امرؤ القيس وأخوه
لزعامة عصورهم عندي في دراستي لها ، لأن للشعر رسالة يجب
رعايتها مع حسن ألفاظه وجودة معانيه ، فيجب رعاية الأمراء
معاً فيمن يستحق الزعامة على شعراء عصره ، وهو لم يتوفراً اشعار
في هذه المدرسة مثل ما تتوفره لأبي العلاء المعري ، فهو عندي أولئك
شعرائهم بالزعامة .



أبو تمام

نسبة وموالده :

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي ، من طيء صلبيبة كأباه كان نصرانياً يسمى تدوس العطار ، وأصل تدوس تيودوس ، فغيرها من أدعى أنه من طيء صلبيبة إلى أوس ، ولفق له نسباً في طيء ليس فيه إلا عشرة آباء ، مع أنه لا يصح أن يكون بينهما أقل من ستة عشر آباً وعندى أن من يلفق عشرة آباء يمكنه أن يلفق السنة الباقية إذا كانت لازمة في ذلك على أن مثل عدد الآباء لا يمكن القطع بشيء فيه ، لأن العمر مختلف طولاً وقصراً ، وقد يكون عمر عشرة آباء مثل عمر ستة عشر آباء ، وكذلك تزعة أبي عام إلى تقليد الشعراء الأوائل ، وإلى إعادة الشعر إلى قوته ونخامة لفظه ، ترجح أنه كان عربياً صلبيبة بتعصب لقديم العرب ، ولو سلم أن آباء كان نصرانياً لم يقدح بشيء في أنه كان عربياً صلبيبة ، لأن النصرانية كانت قديمة في طيء وغيرها من قبائل العرب ، وكذلك لو سلم أن اسم أبيه كان تدوس أو تيودوس ، لأن من نصارى العرب من كان يؤثر هذه الأسماء الرومية بتأثير دينه النصرانية .

وكان مولد أبي تمام سنة ١٩٠ هـ ٨٠٥ م بقرية من قرى

من يقال له جاسم ، وهي على مقربة من دمشق ، فكان مولده في
بيئة عربية ترجع أيضاً أنه كان عربياً لاروميا ، على أن الخلاف
في مثل هذا لا يهم بشيء في دراسة أبي تمام من الناحية الأدبية ،
لأن البيئة العربية التي ولد فيها صهرت كل من كان بها ، حتى صار
بعضهم لا يفرق عن بعض ، وظني أن هذه الظاهرة بين عربي صليبي
وعربي بالولاء كانت قد اختفت في عصر أبي تمام أو كادت كما
تحتفى الآن في عصerna ، لأنها لم يكن لها شأن إلا في عهد دولة بني
أمية ، إذ كان العرب فيها ظاهرين على غيرهم ، فكان للتمييز بين
النسب العربي والخالص وغيره شأنه بينهم ، أما بعد هذه الدولة فإن
الأمر صار إلى العكس ، إذ ظهر غير العرب عليهم ، ولم يكن هناك
معنى لذلك التعالي بالنسبة بينهم ، ولا للقول بأن هذا عربي صليبي وذاك
عربي بالولاء ، ولا للخلاف من جهةه في نسب أبي تمام ، إذ يكفي
أنه كان عربياً ، ولا يعنينا أن كانت عريته صليبية أو بالولاء ، كما
لا يعنينا مثل هذا الآن .

نشأته وسيرته :

نشأ أبو تمام بين أبوين فقيرين ، فلم يرض بعيشة الفقر بينهما ،
بل نزح إلى مصر في طلب الرزق كاً قيل وهو غلام صغير ، والأهل
الشام من قديم حبهم في المهاجرة طلباً للرزق ، لأن طبيعة بلادهم
تضيق عنهم ، ولكن هجرة أبي تمام في هذه السن تدل على قوة نفسه
وعلى بعد همته فلما وصل إلى مصر أقام بمسجدها خمس سنين ، ويقال
إنه كان يسقي الماء بالجرة فيه ، وسواء صحيحاً هذا أو لم يصح فإن

إيشاره للإقامة بالمسجد وهو مكان الدراسة العلمية والأدبية في ذلك الوقت يدل على ميله إليها ، إن لم يدل على اشتغاله بها فيه ، مع الاستعانته بسوق الماء بالجرة فيه على الحصول على لقمة العيش ، ولو لا هذا لاشتغل بعمل خارج المسجد يدر عليه من الرزق أكثر مما يدر عليه ذلك العمل ، وإن أرجح لهذا أن مقصداته الأول من تلك المجرة كان طلب العلم لا طلب الرزق على أنه لم يلتبث أن أدرك أنه استبدل فقرًا بفقر ، وأنه جمع إلى هذا متاعب الاغتراب ، فعاد إلى الشام وأقام بدمشق ، وأخذ يطلب فيها العلم والأدب ، مما يدل على أن هذا هو الذي كان يهمه حين هاجر إلى مصر ، فتعلم العربية وآدابها ، وحفظ ما لا يمحى من الشعر القديم للشعراء الجاهلين والمخضرمين والإسلاميين ، ويقال إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات ، ولا شك أن هذا كان له أثره فيها سبق من إيشار تقليد الشعر القديم ، وتكوينه لمدرسته التي عملت على إعادة الشعر إلى قوته ونفأة لفظه ، بعد أن وصل في إيشار سهولة اللفظ إلى ما وصل إليه في عهد قدامي المؤلدين .

ثم أخذ نفسه يفرض الشعر على طريقته التقليدية التي آثرها حتى نبغ فيها ، وصار فيها إماماً يقتدى به ، ويُحدِّث الشعراء حذوه ، ثم عمد إلى التكسب به كما كان أولئك الشعراء الذين قلدتهم يتكسبون به ، فاشتهر أمره في الشعر ، وسار له صيت به ، وساعدته على هذا أنه كان فصيحاً حلو الكلام ، وإن كان فيه تمتة يسيرة لم يكن يحسن معها أن ينشد شعره ، فكان يتولاه عنه غلام له فصيح يحسن إنشاد الشعر .

وكان إلى هذا حاضر الذهن ، سريع الجواب ، حتى إنه لم يعرفه من أهل زمانه مثله في حدة الخاطر ، ولطافة الحسن ، وما يحكى عنه في ذلك أنه مدح أحمد بن المعتصم ، فقال في قصيدة يصف فيه إقدامه وسماحته وحلمه وذكاءه :

إقدام عمرو في ساحة حاتم في حلم احنف في ذكاء إلیاس^(١)
وكان الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي حاضراً ،
فقال له : الأَمِيرُ فُوقَ مِنْ وَصْفٍ^(٢) فأطرق أبو تمام قليلاً
ثم قال :

لاتنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس^(٣)
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس^(٤)
فأخذوا القصيدة من يده فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، فعجبوا من سرعته وفطنته ، ولما خرج أخبار أبو يوسف ، و كان فيلسوف العرب : أن هذا الفتى يموت شاباً ، لأن حدته وذكاءه يجعلان نفسه تأكل جسمه كما يأكل السيف المهدى غمده ، فصحت فراسته فيه ،

(١) يعني عمرو بن معد يكرب الزبيدي . وحاتما الطائفي . والأحنف بن قيس التنيمي . وإلیاس بن معاوية القاضي المشهور

(٢) يعني أنه فوق عمرو ومن ذكر معه . هنا ملق منه . لأنه لم يكن مثلكم في صفاتهم . ولو لا الاعارة لم يكن له ذكر مثلكم . وقد مات وماتوا فتسي ذكره وبقي ذكر م

(٣) شرود ذاهبا في الناس . والباس مخفف البأس وهو الشجاعة

(٤) يعني قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة الآية) ، والمشكاة كل ما يوضع عليه النبراس أي المصباح

ومات في حدود الأربعين سنة ، وكان هذا الفيلسوف يريد إخراجه بذلك أمام الأمير ، ولعله كان يرى أنه لا يؤخذ عليه شيء فيه ، وأنه كان يكفي لضرب المثل بهم أنهم سبقوه إلى ما اشتهروا به من ذلك ، وأن الناس والشعراء يضربون المثل بهم فيه ، ولكن رأى أن الأمير ربما تأخذه العنجية ويتأثر بذلك الملك من ذلك الفيلسوف فتخلاص بذلك من إخراجه له .

ثم رأى أبو تمام بعد اشتئاره بالشعر في الشام أن يزور إلى بغداد قاعدة الدولة ، لينتشر فيها ذكره أكثر مما انتشر ، لأنه يمكنه أن يتصل فيها بملوك الدولة وأمرائها ، فيرتفع ذكره بمحبه لهم ، ويبال من صلاتهم ما لا يباله من غيرهم ، فدح الواشق من الملوك ، ومدح أحمد بن المعتصم من الأمراء ، ومدح أحمد بن أبي داود ومحمد ابن عبد الملك الزيات من الوزراء ، وطار له صيت بمحبه لهم ، وارتفاع شأنه بما ناله من صلاتهم وجوازهم .

وكان يترك بغداد المرة بعد المرة ، ويقصد كبار الولاية بأطراف المملكة ، فذهب إلى أرمينية وخراسان والهزاج وغيرها من الأقطار ، ومدح خالد بن يزيد والي خراسان ، ومدح عبد الرحمن ابن طاهر والي الهجاز ، ومدح غيرهما من الولاية ، ونال كثيراً من صلاتهم وجوازهم .

وكان لهذه الرحلات أثراً في شعره وأدبها ، ويقال إن الشاعر حال بيته في همدان وبين المضى في سفره ، فاضطر إلى البقاء فيها ، وعكف على خزانة للكتب بها ، وأخذ ينفق وقته في تصنيف ماظهر له من المختارات ، مثل كتاب الحمامة ، وكتاب خول الشعراء ، وكتاب الإختيارات من شعر الشعراء .

ثم عاد إلى بغداد وقد ذاع صيته أكثر مما ذاع ، حتى صار أكبر شعراء عصره ، فرغم به أهل الدولة عن التكسب بالشعر ، وولاه الحسن بن وهب صاحب ديوان الرسائل يربد الموصل ، فأقام بها أقل من سنتين ، ثم مات بها في حدود الأربعين من عمره ، سنة ٢٣١ هـ :

٨٤٥ م

منزلته في الشعر :

يعد علماء الأدب أباً عام رأس الطبقية الثالثة من الشعراء المحدثين ، ويجب أن يقهر هذا عندي على أضرابه من الشعراء المتكتسبين ، ويبالغ بعض المتعصبين له في منزلته في الشعر ، حتى يذكر أنه ما كان أحد من الشعراء يقدر على أن يأخذ درهماً بالشعر في حياته ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذنه ، وهذا يؤخذ عندي عليه ولا يحسب له ، لأن للشعر رسالة أسمى من التكسب به .

وكان استئثاره بذلك في حياته سبباً في كثرة حساده من الشعراء وغيرهم ، وفي اختلاف أمرهم في شعره ، وتبعهم في هذا من أتى بعدهم ، فنهم من يفرط في تعصب له حتى يفضله على كل سالف وخالف ، ومنهم من يفرط في تعصبه عليه ويأخذه بالرديء من شعره ويؤخره عن غيره ، ومنهم من يتوسط في أمره كصاحب كتاب الأغاني ، وهو يرى أن السليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به أحد ، وأن له مع هذا أشياء متوسطة ، وأشياء رديئة رذلة جداً .

وعندى أن أباً عام كان يرى كما سبق أن له رسالة في الشعر العربي ، ليعيده إلى ما كان عليه من القوة ونفامة اللفظ عند الأوائل ،

وقد نجح في أداء رسالته في ذلك ، وأنشأ له فيها مدرسة جاراه فيها
كثير من شعراء عصره ، وغابت على من آتى بعده من الشعراء ،
وهو في هذا رأس مدرسته وزعيمها الأول بلا منازع ، وقد غفل عن
هذا من نظر إلى شعره من غير هذه الناحية ، فلدي إلى وقوع
الخلاف فيه على نحو ما سبق ، وقد سبقه مسلم بن الوليد إلى شيء
من هذا ، ولكنه لم يسرف مثل إسرافه فيه ، بل كان يجرئ . كثيراً
مع طبعه ، ولا يتكلف من ذلك ما تكلفه أبو تمام بعده .

وكان أبو تمام قد ظهر بعد أن كملت ترجمة علوم الأوائل وفلسفاتها ، ولاسيما فلسفة اليونان العالمية الدقيقة ، فنظر فيها باهazard من دقة فهمه ، ووحدة خاطره ، فجعل يغوص في شعره وراء المعنى الدقيق ، والاستعارات والكتابات الخفية ، ولشدة تأثيره بهذا في شعره قيل إنه حكيم وليس بشاعر ، كأن الحكمة لا تجتمع بالشعر ، وكأن الشعر لا يجتمع بالحكمة ، وهذا خلاف الحديث المشهور «إن من الشعر حكمة ». .

ولم يقتصر أبو تمام على محاكاة الأوائل في معانيهم العالمية وألفاظهم الفيضة ، بل كان يخترع من ذلك ما لم يعتمد مثله عند الأوائل ، ومن هذا قوله :

(١) البرد كسام مخطط وفي رواية - بكتبه ماغالب

والقدماء لا يعرفون هذا الحلم الراقيق ، وإنما الحلم عندهم يزن الجبال ،
كما قال بعض الشعراء :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل
ولكن أبا تمام تأثر في ذلك بعصره عصره ورقة الحلم عند رجاله ،
ولكل عصر في ذلك حكمه (١)

وكذلك تأثر بعصره فيما كان يكثر منه في شعره من ضرب
الحكم والأمثال ، ومن الاستدلال على الأمور بالأدلة العقلية ، فهذا
بهذا طريق الحكم والأمثال لمن حذا فيها حذوه ، كالمتنبي والمعرى
وغيرهما من الشعراء الحكماء .

ولكن هذا التكلف الذي كان يعني به في لفظه ومعناه كثيراً
ما كان يؤدي به إلى التعقيد وسوء التأليف في شعره ، وإلى الخروج
عن قواعد اللغة وتحميمها من هذا ما لا نطيقه ، ومن هذا قوله :

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا

عنه فلم يتخون جسمه الكمد (٢)

فأثار بهذا وبما كان يختبره من الإستعارات البعيدة علماء الأدب
عليه ، لأنّه خرج به على مأثور القدماء ، بل أوقع نفسه بهذا في
الخروج على مذهبه في العودة بالشعر إلى تقليد الشعراء الأوائل ،

(١) وأخذ عليه أيضاً أن البرد لا يوصف بالرقابة . وإنما يوصف بالمتانة
والصفافة . وأكثر ما يكون ألواناً مختلفة .

(٢) مجلة خان الزمان أخاه صفة لأخ . يعني أبعده عنه . ويتحققون ينفعون
والكمد الحزن الشديد .

حق إن ابن الأعرابي أنسد شعرًا له من ذلك ثم قال : إن كان هذا شعر فما قالته العرب باطل ، لأنه وأمثاله من علماء الأدب لا يحيزون لابي تمام وغيره من المحدثين أن يتصرفوا في اللغة أو يختagua فيها ، وعندى أن هذا لا يصح منعه على إطلاقه ، وإنما يمنع منه ما يؤدي إلى مثل ذلك التعقيد في شعر أبي تمام ، وما إلى هذا مما لا يستسيغه الذوق اللغوي .

وإذا كان أبو تمام قد وقع بذلك في تلك المأخذ فإنه مع هذا أجاد القول فيما تناوله من الشعر في المدح وغيره من الأغراض التي تناولها أمثاله من الشعراء المتكتسين ، وله في الرثاء قصائد كان بعض أمراء عصره يتمنى أن يموت ليرثيه بمثلها ، وإذا كان قد وقع أحياناً في تلك المأخذ في بعض قصائده في المدح ونحوه ، فإن هذا لا ينقص من جودتها البلاغية في جملتها .

مختارات من شعره :

أشعار أبي تمام وقصائده مشهورة ، وله ديوان مطبوع يمكن الرجوع إليه لمن يريدها ، ولعلماء البلاغة ولوغ في الاستشهاد بها في علومها ، لأنها حاصرة بفنون البلاغة التي أولع بها في شعره .

ونختار منها هنا قصيدة له في رثاء محمد بن حميد الطائي ، وهي من أجود ما قيل في الرثاء ، حتى إن أبو دلف أنسد لها ثم قال : والله لو ددت أنها في ، فقال أبو تمام : بل أقدر الأمير بنفسه وأهلي وأكون أنا المقدم^(١) ، فقال أبو دلف : إنه لم يمت من رثى بهذا

^(١) يعني أن يموت قبله.

الشعر؛ وهي هذه القصيدة مع بعض الاختصار فيها :

كذا فليجعل الخطيب وليفدفع الأمر

فلپس اعین لم يفض ماؤها عنر (١)

توفیت الامال بعد محمد

وأصبح في شغل عن السفر السفر (٢)

وَمَا كَانَ إِلَّا مَالٌ مِنْ قَلْمَانِهِ

و ذخراً لمن أمسى وليس له ذخر

و ما کان پدری مجتبی جود کفه

إذا ما استهلت أنه خلق العسر (٢)

ألا في سبيل الله من عطلت له

^(٤) فما يجتاز سبيلاً من الله تعالى ينذر بعذابه

فوقی کلام فاضت عيون قبیله

دما ضرحت عنه الأحاديث والذكر

فتی دهره شطران فما ینو به

فیو باسه شطر و فی جوده شطر

ففي مات بين الطعن والضرب ميّة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

(١) لم يفض بالفاء لم يسل ، ويصح أن يكون بالفين أي لم ينضب لتفاده من كثرة الكلمات .

(٢) السفر بفتح فسكون المسافرون .

(٣) المجتدي السائل ، استهلت استعارة من استهل المطرانيل وانسرك .

(٤) انصرف التغير انتفتح للعندو وهو المكان الذي يخاف هجومه منه .

وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر (١)

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده
إليه الحفاظ المر والطلق الوعر (٢)
ونفس تعاف الموت حتى كأنما
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر (٣)

فأثبتت في مستنقع الموت رجله
وقال لها : من تحت إحمصك العبر
غداً غدوة والحمد نسج ردائه
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر (٤)

وهذا هو الرثاء الصادق لأمير مات مجاهداً في سبيل الله تعالى ،
ويزيشه مع هذا خفامة لفظه ، وجودة معانيه ، وحسن تشبيهاته
واستعاراته ، مما جعل أبي دلف يتمنى أن يموت قبل أبي تمام
ليرثيه بمثله .

وصية أبي تمام للبحترى :

ولا بد في آخر الكلام على أبي تمام من ذكر وصيته للبحترى ،
لأن فيها ما يؤيد أنه لم يكن شاعراً خحسب ، وإنما كان شاعراً

(١) القنا الرماح واحده قناه.

(٢) الحفاظ الدفاع عن الحارم.

(٣) تعاف تكره ، يوم الروع يوم الحرب.

(٤) غداً غدوة : سار إلى القتال أول النهار.

صاحب مدرسة ، وله رسالة في الشعر أخذ بها تلميذه الأول ،
ليبلغها عنه إلى غيره من الشعراء ، وينهجوا على منهاجاً في الشعر ،
ووها هي ذي وصيته على لسان البحترى :

قال البحترى :

كنت في حداثتى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طبعى ،
ولم أكن أقف على تسهيل مأخذة ، ووجوه اقتضابها^(١) حتى قصدت
أبا تمام ، وانقطعت إليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان أول
مقال لي :

يا أبو عبادة^(٢) تخير الأوقات وأنت قليل المهموم ، صفر من
الفموم^(٣) وأعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان
لتلقيف شيء أو حفظه في وقت السحر ، وذلك أن النفس قد
أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم .

وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ،
وأكثر فيه من بيان الصيابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ،
 ولو عنة الفراق ، فإذا أخذت في مدح سيد ذي أياد^(٤) فأظهر مناقبه ،
 وأظهر مناسبه ، وابن معاله ، وشرف مقامه ، ونضد المعانى ،
 وأخذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالأنفاظ الرديئة ،
 ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام .

(١) الاقتضاب الانتقال في القصيدة من النسب إلى المدح ونحو ذلك .

(٢) كنية البحترى .

(٣) صفر خال .

(٤) نعم .

وإذا عارضك الضجر فأرجح نفسك ، ولا تعمل شعرك إلا وأنت
غارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الفريعة إلى حسن نظمه
فإن الشهوة نعم المعين .

وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما
استحسن العلماء فاقصده ، وما ترکوه فاجتنبه ، ترشد إلن شاء الله .

وهذه الوصيية تدل على أن رسالته في الشعر كانت مقصورة على
تبويذ الألفاظ المعانى ، وعلى تقليد الماضين في ذلك ، وهو لا يعني
بالماضين قدامى المولدين قبله ، وإنما يعني بهم الشعراء الأوائل من
الجاهليين والخضرمين والإسلاميين ، لأن رسالته في الشعر كانت
كما سبق إعادة الشعر إلى أسلوبهم ، ليقضى على ما أحدثه فيه قدامى
المولدين ، وإن كان لم يلتزم بذلك في شعره ، بل جاء بشعر لا هو إلى
الشعراء الماضين ، ولا هو إلى قدامى المولدين ، وإنما يجمعه بشعر
الماضين علو أسلوبه ، ومجانته للسهولة ، وبعده عن لغة التخاطب
في عصر .

البحترى

نسبة وموالده :

هو الوليد بن عبيد البحترى ، ينتسب إلى بحتر ، وهي بطن من طوى ، وطوى قبيلة أبي تمام كا سبق ، ولكن البحترى لم يختلف في نسبة إليةها كما اختلف في أبي تمام ، فهو عربي صلبيبة بالاتفاق .
وكان مولده بميسج أو بقرية من قراها كما ولد أبو تمام أيضا ،
وكان لهذا وذلك أثره في تأثره بمدرسته ، إلى ما يأتي من العوامل
التي جعلته يتاثر بها أيضا ، وجعلته التلميذ الأول لهذه المدرسة .

نشأته وسيرته :

نشأ البحترى في بلده فقيرا كما نشأ أبو تمام ، ولكن له
همة مثل همة تحفظه إلى طلب الغنى بالهجرة من قريته إلى مصر
أو غيرها كما هاجر قبله ، بل قبَع في قريته راضيا بفقره ، ثم أخذ
يقول الشعر بسلبيقتها ، ويلهج به في غدواته وروحاته ، حتى إنه كان
يدخل المسجد من باب وينخرج من باب آخر وهو ينشد الشعر في
طريقه ، وقد يقف على حلقات المسجد فينشد واقفا ، ثم يخرج
من باب المسجد ويقف على باعة البصل والباذنجان ويمدحهم بشعره
ولعله كان يستجديهم به على ما سيكون من شأنه بعد ، ولا بد أنه
كان شعرا قريبا في لفته من أولئك العامة الذين يمدحهم به .

ثم علق بفتاة من فتيات بلده يقال لها علوة بنت زريقه ، فأخذ
يشتبب بها في شعره ، فترقى شعره شيئاً بما رفق حبه لها من وجدانه .
ورفع من شأن نفسه .

وكان لأبي تمام في ذلك الوقت مجلس أدبي بمحصن من مدن
الشام ، يجتمع إليه فيها شعراً تلك النواحي وينشدوه أشعارهم ،
فقصصده البحترى لينشده شعره فيمن قصده من الشعراء ، فأعجب
أبو تمام بشعره أكثر من غيره ، واستبقاءه عنده بعد انصراف
الشعراء من مجلسه ، ثم قال له : أنت أحسن من أنسدنى ، خذتني
عن حالي .

فشكا إليه البحترى فقره وما هو فيه من سوء الحال ، فكتب له
كتاباً إلى أهل معرة النعمان ينبههم بأمره ، ويخبرهم بما ينتظر له من
شأن في الشعر ، ويوصيهم به خيراً ، فذهب البحترى إليهم بكتاب
أبي تمام ، فلما قرؤوه أولوه عنايتهم ، وعملوا على تحسين حاله ،
ففرضوا له أربعة آلاف درهم كل عام يستعين بها في أمره ، وترفع
من نفسه ، فيرتفع بذلك شعره .

وقد أمكنه بهذا أن يتصل بأبي تمام ليأخذ الشعر عنه ، فانقطع
إليه يسترشد به في الشعر ، ويحذو حذوه فيه ، إلى أن نبغ في الشعر
وظهر أمره ، حتى كان أبو تمام يقول له : أنت والله يا بني أمير
الشعراء غداً بعدى .

ثم فارق أبي تمام بعد أن أخذ عنه ما أخذ من الشعر ، وقصد
بغداد قاعدة الدولة العباسية ، ليظهر أمره ب嗾 ملوكها وأمرائها

ووزرائهما أكثر مما ظهر ، ويُمشى بهذا فيما نجده لنفسه أول أمره من اتخاذ الشعر وسيلة للكسب ، ويجرى أيضا على طريقة أستاده أبي تمام في ذلك .

وكان صيته قد وصل ببغداد قبل وصوله إليها ، فسرعان ما انصل بالموكل العباسى ، وبوزيره الفتح بن خاقان ، فقرباه من مجلسهما ، وأعطياه عطايا جزيلة ، وكان له في مدحهما قصائد بدعة هي أجود شعره ، ومكث معهما ببغداد على أحسن حال إلى أن نار المتصدر بن الموكل على أبيه ووزيره الفتح وتمكن من قتلهما ، وكان البحترى في مجلسهما حين قتلا يشاهد ما جرى لهما ، فرقى الموكل بقصيدة من أجود ما قيل في الرثاء ، وقد استطرد فيها إلى تشنيع الجنائية عليه وعلى وزيره ، وإلى التشنيع على من دبر قتلهما .

ولكنه لم يلبث أن غلبت فيه غريزة التكسب بالشعر على غريزة الوفاء ؛ فانصل بالمتصدر يمدحه طمعا في جوازه ، مع أنه لم يلبث في الملك إلا نحو ستة أشهر ، مما يدل على أن البحترى لم ينكث إلا قليلاً ثم انصل به ، وكان انتهاء ملك المتصدر بثورة قامت عليه كما قام ثورته على أبيه ، وقد انتهت بقتله أيضا وقيام المستعين بالملك بعده ، فأخذ البحترى يمدح المستعين ويهجو المتصدر بعد مدحه له ، وكذلك شأن كل شاعر يتكسب بالشعر ؛ لأنه لا يمدح عن صدق ، ولا يشنى عن وفاء ، وكذلك شأن كل حكم يقوم بالغلبة دون اختيار الأمة ؛ فلا يجد ملوكة وزراؤه وأمراؤه من يمدحهم بأخلاقهم ، ولا يجد

الشعر من يؤدي رسالته الصادقة بينهم ، ولو قام الحكم باختيار الأمة ولم يقم بالتعغل لاستقام أمره ، ولاستقام أمر الشعر فيه .

ولم يكن ينتظر من البحترى فى نشأته السابقة إلا مثل هذا وأكثر منه ، فقد بالغ فى حب المال حتى باع فيه شعره لكل من يطلبه ، وحق تقلب فيه بين المدح والمجاهء ولم يثبت فيما على حال ، لضعف نفسه ، وقلة وفائه ، فكان مدح من يمدحهم من الملوك والأمراء والوزراء حين تقوم دولتهم ، فإذا ذهبت دولتهم انقلب عليهم فيجاههم ، وتقرب بهجائهم إلى من قام بعدهم ، حتى يقال إنه هجائهم نحو أربعين بعد مدحه لهم ، وهذا له دلائله على فساد الدولة في عهده . وعلى سوء أثره في الشعراء الذين ظهروا فيه .

وقد جمع البحترى من المال ما جمع ، ولستكنه كان يدخل به على نفسه وأهله ، فكان من أوسع خلق الله نوباً وآلته ، ومن أبلغهم على كل شيء ، حتى إنه كان له أخ وغلام معه في داره . فكان يقتتلها جوعاً . فإذا بلغ الجوع منها أتياه ببكيان . فيرمي إليها بشمن أقواتهما مضيقاً مقتراً . ثم يقول لها : كلا أجياع الله أكبادكم . وأطوال إجهاضكم .

وكان له غلام رومي يسمى نسيباً . ولم يكن حسن الوجه . ولكنه جعله باباً من أبواب الخيول على الناس . فكان يبيعه ويعتمد أن يصيره إلى ملك بعض أهل المروءات . ومن ينفق عنده الأدب ، فإذا حصل في ملوكه أخذ يشبب به ويتشوق إليه ويهدح مولاه حتى يهبه له . ولم يزل هذا شأنه معه حتى مات فكفي الناس أمراً احتياله به

ولا بد أن هذا كان له أثره في وجوه الدولة ببغداد . فضاقوها بالبحترى وضاق بهم . ولم يجد إلا أن يترك بغداد ويرجع إلى بلده منبج . فاقتني فيها أملاكاً واسعة بما جمعه من المال في بغداد . وكان بها وال صغير بقدر شأنها بين البلاد ، فكان يتربّد إليه بسبب أملاكه ومصالحها ويخاطبه بالأمير تلقاً له ، ثم يدركه الأسف على ما صار إليه أمره في بلده بعد ما كان من شأنه في بغداد على عهد المتوكل . فيقول :

مضى جعفر والفتح بين مرمل

وبين صبيغ بالدماء مضرج (١)

أطلب أنصاراً على الدهر بعدما

توى منها في الترب أوسى وخزرجي (٢)

أولئك ساداتي الذين بفضلهم

تحلت أفاويف الربيع الملجم (٣)

مضوا أمماً قصداً وخلفت بعدهم

أخطاب بالتأمیر والى منبج (٤)

(١) جعفر اسم المتوكل ، ومرمل ملطخ بالدم ، ومضرج ملطخ بالدم أيضاً .

(٢) يعني الأوس والخزرج من أهل المدينة أنصار النبي صلى الله عليه وسلم استعمارهم لأنصاره .

(٣) الأفاويف ما يجتمع من الماء في السحاب فهو يمطر ساعة بعد ساعة . استعمارها لما ناله من خيراً لهم ، والملجم الذي يكسو الأرض بسواد الزرع

(٤) أمماً قرباً أي متقاربين .

وكان يختلف أحيانا إلى بغداد فيمدح أولى الأمر فيها ويأخذ جوازهم ثم يعود إلى منيung ، وقد قصدها مرة ورثي فيها أبا عيسى ابن صاعد بأبيات وجد فيها بعض حساده عليه مقالا ، فشنعوا عليه بأنه ثنوی (١) ودارت مقالاتهم في الناس . وكانت العامة في ذلك الوقت غالبة على بغداد ، خافهم البحترى على نفسه . وأسرع بالخروج من بغداد إلى منيung . ولم يعد إلى بغداد بعد ذلك . وكانت وفاته بمنيung سنة ٢٨٤ هـ م ٨٩٧

منزلته في الشعر :

أبو تمام والبحترى والمتين ثلاثة شعراء من المحدثين سارت بذكراهم الركبان ، وعني علماء الأدب بالكلام عليهم والموازنة بينهم ، وتأليف السكتب فى ذلك ، والبحترى عندهم هو الشاعر المطبوع ، أما أبو تمام والمتين فكانا من الشعراء الحكما ، هم يجعلون شعر البحترى من نوع شعر أبي نواس ، ويدهبون إلى أنه لم يأت بعد أبي نواس من هو أشعر من البحترى ، ولا بعد البحترى من هو أطبع منه على الشعر ، ولا أبدع منه فى الخيلان الشعري لأنه كان لنشأته البدوية بعيدا فى شعره عن مذاهب الحضريين وتدقيقهم وفلسفتهم . فكان ينطقل فى شعره عن عاطفته لا عن عقله . ولا يجهد نفسه فى اختراع معان دقيقة . أو ابتكار تشبيهات واستعارات جديدة . وإنما كان يقصد إلى المعانى المطرقة

(١) يقول بالهين اثنين كالجوس

فيظهرها في نوب جميل من فصاحته وجزالته المطبوعة . فيجيء
شعره حسن الدبياجة . صقيل اللفظ . سلس الأسلوب وبهذا يمتاز
عند من يرى أن الشعر من وحي العاطفة على صاحبيه : أبي تمام
والمتني .

والبحترى عندي من أولئك الشعراء الذين عملوا على إحياء
الشعر القديم ، وعلى إعادةه إلى متناته وجزالته القديمة . وبهذا يعد
عندي من مدرسة أستاذه أبي تمام . بل البحترى كان أكثر تقليلدا
للقديمات من أستاذه . لأنه لم يتأثر في شعره بما تأثر به من الفلسفة
ونحوها . وينكر من سبق من علماء الأدب إلى رأيهم فيه أنه تأثر
بأبي تمام إلى حد كبير . فأخذ كثير . من معانيه . وجراه إلى
حد ما في استعمال البديع وتدقيق المعانى وغيرهما من طريقته .

وقد كثر الخلاف بين علماء الأدب في موازنة بين أبي تمام
والبحترى . فكان للبحترى أنصار يقدمونه على أبي تمام كما سبق
حتى لئيم يختتمون الشعر العربي بشعره ، وكان لأبي تمام أنصار
يقدمونه على البحترى . ويفضلون تدقيقه وتعقده على سهولة
البحترى .

وكان البحترى لا يجارى أنصاره في تعصبهم له على أستاذه أبي
تمام . ويقول في ذلك : والله ما أكلت الخبز إلا به . ثم يقول في
موازنته شعره بشعره قول منصف : إن جيد أبي تمام خير من جيدى .
ووسعى خير من وسط أبي تمام ورديثه . وهذا وفاء لأستاذه يحمد
عليه ما سبق من قلة وفائه لأصحابه . وعلى أنه كان أكثر الشعراء

نخرا بشعره . إذ كان يغلو في فخره به ويتشارق عند إنشاده .
حق عد من أبغض الناس إنشادا . لأنـه كان يتذمـر عند إنشاده
في مشـيه صـرة جـانـبـا . ومرة القـهـقـرـى . ويـهـزـ رـأـسـهـ صـرـةـ . وـمـنـكـيـبـهـ
آخـرىـ وـيـشـيرـ بـكـهـ . ويـقـفـ عـنـدـ كـلـ بـيـتـ ، ويـقـولـ : أـحـسـنـ وـالـهـ
فـمـ يـقـبـلـ عـلـىـ الـمـسـتـعـمـينـ فـيـقـوـلـ : مـالـكـمـ لـاـ تـقـولـونـ أـحـسـنـ ؟ـ هـذـاـ
وـالـهـ مـالـاـ يـحـسـنـ أـحـدـ أـنـ يـقـوـلـ مـثـلـهـ .

ومـاـ يـحـكـيـ عـنـهـ فـيـ هـذـاـ أـنـهـ فعلـهـ صـرـةـ أـمـامـ المـتـوـكـلـ ، فـضـبـجـرـ ٤٤٥ـ ،
وـسـلـطـ عـلـيـهـ شـاعـرـاـ كـانـ فـيـ مـجـلسـهـ ؛ فـقـطـعـ عـلـيـهـ شـعـرـهـ ، وـارـتـجـلـ شـعـرـاـ
هـجـاهـ بـهـ ، نـخـرـجـ غـاضـبـاـ إـلـىـ بـعـضـ أـصـحـابـهـ ، وـاسـتـشـارـهـ فـيـ الـخـروـجـ
مـنـ بـغـدـادـ بـغـيـرـ إـذـنـ فـهـاءـ صـاحـبـهـ وـقـالـ لـهـ : إـنـ الـمـلـوـكـ تـمـزـحـ بـأـعـظـمـ مـاـ
جـرـىـ لـكـ . فـسـمـعـ لـهـ وـاـحـتـمـلـ مـاـفـعـلـهـ المـتـوـكـلـ مـعـهـ ، وـأـقـامـ بـغـدـادـ عـلـىـ
هـذـاـ الـحـالـ الـذـىـ لـاـ يـحـسـدـ عـلـيـهـ .

وـقـدـ تـصـرـفـ الـبـحـتـرـىـ فـيـ فـنـونـ الـشـعـرـ الـذـىـ تـصـرـفـ فـيـهاـ الشـعـراءـ
الـمـتـكـسـبـونـ ، فـأـجـادـ القـوـلـ فـيـ هـذـهـ الـفـنـونـ مـاـعـداـ الـهـجـاءـ ، فـإـنـ أـشـعـارـهـ
فـيـهـ لـاـ تـشـاكـلـ طـبـعـهـ ، وـلـاـ تـلـيقـ بـمـذـهـبـهـ ، وـتـنـبـىـءـ بـرـكـاتـهـ وـغـثـائـةـ
أـلـفـاظـهـ عـنـ قـلـةـ حـظـهـ فـيـ الـهـجـاءـ ، وـذـكـرـ صـاحـبـ الـأـغـانـىـ أـنـ اـبـنـهـ أـبـاـ
الـغـوثـ أـرـجـعـ السـبـبـ فـيـ هـذـاـ إـلـىـ أـنـ أـبـاهـ لـاـ حـضـرـتـهـ الـوـفـاةـ دـعـاـ بـهـ
وـأـمـرـهـ أـنـ يـجـمـعـ كـلـ شـىـءـ قـالـهـ فـيـ الـهـجـاءـ فـيـحـرقـهـ ، لـأـنـهـ قـالـهـ فـيـ وـقـتـ
شـقـيـ غـيـظـهـ ، وـرـبـهـ يـنـالـهـ مـنـهـ سـوـهـ بـعـدـ مـوـتـهـ ، فـأـحـرقـهـ كـمـ أـمـرـهـ بـهـ .
ثـمـ اـسـتـدـرـكـ ماـ ذـكـرـهـ أـبـوـ الـغـوثـ بـأـنـ مـاـ بـقـىـ مـنـ هـجـاءـ أـيـهـ إـذـاـ صـحـ
يـدـلـ عـلـىـ مـاـ أـحـرقـ مـنـهـ ؟ـ وـأـنـهـ كـانـ عـلـىـ شـاـكـلـهـ ، وـعـنـدـىـ أـنـ ضـعـفـ

أشعاره في المهجاء ترجع إلى ضعف نفسه ، لأن المهجاء يحتاج إلى نفس قوية لا تختلف الأذى ؛ ويفيد هذا ما ذكره في دعوة ابنه إلى إحراقه خوفه أن يصييه سوء منه ، على أن ضعفه في المهجاء لا يضيئه بشيء ، لأن كثيراً من الشعراء كان يفتخر بعجز لسانه عنه ؛ وكل ماورد من هجاء الشعراء المهجائين لا خير في جيده ولا في رديئه .

هذا ولم يقتصر تقليد البحترى لأستاذه أبي تمام على الشعر ، بل كان يقلدء أيضاً في التأليف ، ومن ذلك كتاب الحماسة للبحترى ؛ وكتاب معانى الشعر له

مختارات من شعر :

قال يمدح المتوكّل ويذكر خروجه يوم الفطر :
أخف هوى لك في الضلوع وأظهر
وألام في كمد عليك وأعذر(١)
وأراك خنت على النوى من لم يخن
عهد الموى وهجرت من لا يهجر
وطلبت منك مودة لم أعطها
إن المعنى طالب لا يظفر(٢)
هل دين علوة يستطيع فيقتضى
أو ظلم علوة يستفيق فيقصر(٣)

(١) كمد : حزن شديد

(٢) المعنى الذي وقع في العناء والتعب من الهجر

(٣) فيقصر : يعتنق

يضاً يعطيك القضيب قوامها
ويريك عينيها الفرزال الأحور(١)

إلى أن يقول :

وتوهم الواشون أني مقصور(٢)
ويروقني ورد الخدود الأحر
ملكاً يحسنه الخليفة جعفر
والله يززق من يشاء ويقدر
تعطى الزيادة في البقاء وتشكر
فيها المقل على الغنى والمكثر
وبسنة الله الرضية تفطر(٣)
يوم أغدر من الزمان مشهر
لجب يمحاط الدين فيه وينصر(٤)
عدداً يسير بها العديد الأكثـر
والبيض تلمع والأسنة تزهـر(٥)
والجو معتـكر الجوائب أغـبر(٦)

إني وإن جانبت بعض بطالـي
ليـشوـقـنـي سـحـرـ العـيـونـ المـجـعـلـيـ
الـهـ مـكـنـ لـلـخـلـيـفـةـ جـعـفـرـ
نـعـمـيـ مـنـ اللهـ اـصـطـفـاهـ بـفـضـلـهـاـ
فـاسـلـمـ أـمـيرـ المؤـمنـينـ وـلـاـ تـزـلـ
عـمـتـ فـوـاضـلـ البرـيـةـ فـالـتـقـيـ
فـالـبـرـصـمـتـ وـأـنـتـ أـفـضـلـ صـائـمـ
فـانـعـمـ بـيـوـمـ الـفـطـرـ عـيـنـاـ إـنـهـ
أـظـهـرـتـ عـزـ الـمـلـكـ فـيـهـ بـجـهـفـلـ
خـلـنـاـ الـجـبـالـ تـسـيـرـ فـيـهـ وـقـدـ غـدـتـ
فـالـخـلـيـلـ تـصـهـرـ وـالـفـوـارـسـ تـدـعـيـ
وـالـأـرـضـ خـاـشـعـةـ تـيـدـ بـشـقـلـهـاـ

(١) التقبيب الفصن المعتدل . والأحور الذي اشتـرـيـاضـ عـيـنـهـ وـسـوـادـهـ

(٢) بـطـائـيـ تعـطـلـيـ وـقـرـغـىـ لـلـهـ

(٣) البر : الطاعة

(٤) جـيشـ كـثـيرـ العـدـدـ . جـبـ ذـيـ جـلـيـةـ أـيـ صـيـاحـ لـكـثـيرـهـ

(٥) البيـنـ : السـيـوـفـ وـالـأـسـنـةـ اـرـمـاجـ أوـ أـطـرافـهـاـ

(٦) تـيـدـ تـحـركـ وـتـنـطـرـبـ

والشمس مانعة توقد بالضحي طوراً يطفئها العجاج الأكدر (١)
حتى طاعت بصوته وجهك فانجلت
تلك الدجى وانجاح ذاك العثير (٢)

(٢) يومى إليك بها وعين تنظر (٣)
ما طاعت من الصنوف وكبروا
نور المدى يبدوا عليك ويظهر
الله لا يزهى ولا يتكبر
في وسعه لمشى إليك المفتر
تنبى عن الحق المبين وتخبر
وافتن فيك الناظرون فأصبح
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا
حتى انتهيت إلى المصلى لابسا
ومشيته مشية خاشع متواضع
فلو أن مشتاقا تتكلف فوق ما
أيدت من فصل الخطاب بمحكمة
إلى أن يقول في ختامها :

(٤) يهب الذنوب لمن يشاء ويفتر (٤)
وحباك بالفضل الذى لا ينكر
وأجل قدر اف الصدور وأكبر
فاسلم بمغفرة الإله فلم ينزل
الله أعطاك المحبة في الوري
ولأنك أملأ العيون لديهم
وهو يبدأ في هذا مدحه بالنسب على عادة الأوائل من الشعراء
ثم يمضي في هذه المبالغات في مدح المتكل ، ولم يكن فيه شيء من
ذلك الأوصاف التي أصفهاها عليه ، وإنما كان ملكاً جباراً مفتوصباً
للملك من الأمة ، وفي عهده ابتدأ انحطاط الدولة العباسية ، بما قضى

(١) مانعة : مرتفعة

(٢) انجابت : زالت ، والدجى : الظلمة ، والعثير : الغبار

(٣) يومي يوماً أي يشار

(٤) يهب الذنوب : يسامح فيها ولا يؤخذ عليها

علوم الفلسفه ، وبما حجر من حرية الرأي ، وبما دعا إليه من إيهار التقليد على الاجتهاد ؛ وأكثرا ديوانه مدائح من هذا الشكل ، يتاجر فيها ولا يقصد وجه الحق
وقال في غلامه نسيم :

بأنك أنت كيف أخلفت وعدى
لم تجده مثل ما وجدت وما أه
رب يوم أطعك لك الفح
حسن عينيك قهوتى وتنايا
لا أرتكن الأيام فقدك ما عاش
أعظم الرزء أن تقدم قبلى
حسداً أن تكون إلها لغيري فيك وجدى
والتسلب بالذكر من أقبح ما ظهر في الشعر بعد الإسلام ،
لاستباح الحضارة بعده ، والحضارة إذا استبحرت وقام فيها مثل
أولئك الملوك ، تركوها طليقة لتنشر الفساد في الناس ، ليكون لهم
من مفاسدهم ما يعميهم عن مفاسد ملوكيهم .

(١) لم تجده : من الوجد وهو الحبة

(٢) قهوتى خرى أي يسكنى مثلك والرضا : الريق المرشوف وفتات المسك

(٣) دعاء بأن يقي كل منها الآخر ولا يفقده

(٤) الرزء : المصاص ، والغبن أصله غبن البيع وهو نقص الثمن

ابن المعتز

نسبه وموالده :

هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد ، ينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مولده ببغداد قبل مقتل جده المتوكل بأربعين يوماً ، وكان ابنه المعتز حين قتل في حدود العشرين من عمره .

نشأته وسيرته :

نشأ عبد الله في رعاية أبيه وهو في حدود العشرين من عمره كما سبق ، إذ كان فتى يحب اللهو والشرب والغناه ، ويقول من الشعر بعض مقطعات غنائية يغنية فيها جواريه وندماؤه من المغنين ، وهي عيشة لا يحمد عليها فتى قد يكون في يوم ما ملكا على المسلمين ، بل إنه لم يلبث إلا قليلا حتى تولى الملك بعد قتل أخيه المتصر ل نحو ستة أشهر مضت على قتله لأبيه ، فمضى بعد أن آل الملك إليه في تلك الحياة اللاهية ، لأن أولئك الملوك لم يصر لهم شيء من الأصر بعد أن استبد بهم مواليهم من الترك ، وبعد أن هانت عليهم دمائهم إلى ذلك الحد ، ولهذا لم يلبشو أن قتلوا المعتز أيضا ، وكان ابنه المعتز حين قتل في الثامنة أو التاسعة من عمره .

فلمما قتيل المعزز قامت أمّه قبيحة بترية ابنة عبد الله ، وكانت رومية الأصل ، فأحضرت له كبار العلماء في العلوم الدينية والأدبية ، مثل أبي العباس المبرد ، وأبي العباس نعلب ، وأحمد بن سعيد الدمشقي الأديب المتفاسف ، وهو الذي عهد إليه تربيته من صغره ، وكان قد اختص به حتى كان يغضب إذا خُمِّلَ إِلَيْهِ غَيْرُهُ ، كما غضب حين خُمِّلَ إِلَيْهِ البلاذري المؤرخ .

ولم يلبث عبد الله أن ظهرت براعته من صغره في الشعر وعلوم الأدب ، إذا ورث الشعر فيا ورثه عن أبيه ، وورث عنه أيضاً حب اللهو والشرب والصيد ، وما إلى ذلك من ضروب اللهو ، وقد تأثر بما أصاب جده وأباه ، فرأى أن يبعُد عن سياسة الدولة ، وأن يقطع أمله من الملك ، وأن يشغل نفسه بتلك الحياة اللاهية ، وأن تكون صلةه بالملوك العباسيين صلة شاعر عالم أديب ، لاصلة أمير يتطلع إلى ماهرم من الملك .

فكان يمدح ملوك بني العباس كغيره من الشعراء ، ومن مدحه منهم المعتصم ، وكانت الدولة قد نهضت بعض النهوض في عهده ، حتى أمكنه أن يسكن الفتنه التي كادت تعصف بالدولة ، وأن يقمع الذين يقومون فيها بالثورة بعد الثورة ، ولم يكن ما أصاب أباه وجده ليغمسه في دولتهم ، بل كان يمدح ملوكها بإخلاص ، ويتعصب لهم على العلوين الذين كانوا يرون أنهم أحق بالدولة منهم ، فكان يطعن عليهم بشدة في شعره ، ويويد فيه حق العباسيين في الدولة دونهم ، ولم تكن هذه رسالة الشعر في ذلك الفساد ، بل

كانت رسالته أن يعمل على إصلاح تلك السياسة التي استبدت بالرعاية
ولم تجعل لها شأنًا في اختيار من يصلح لسياستها من العباسين أو
العلويين أو غيرهم .

ولم يكن ينتظر من ابن المعز في تلك الحياة اللاهية إلا أن يعنى
في الشعر على ماضيه غيره من الشعراء ، ويقتضينا الإنصاف أن
نذكر أن حياته لم تكن مصروفة كلها في اللهو ، بل كانت مقسمة
بين اللهو والجد ، وكان في لمه شاعرًا خليعاً قد فتن بمحاربة اسمها
نشر ، وب glam اسمه نشوان ، وله فيما أشعار وأخبار لا داعى إلى
ذكرها في سيرته هنا ؛ وكان في جده عمالاً أدبياً له منزلته الكبيرة
بين علماء الأدب ، ويكفى في عظم منزلاته في ذلك أنه ينسب إليه
اختراع علم البديع بكتابه الذي أنفق باسم هذا العلم ، وله غيره من
الكتب ، مثل الكتاب الزهر والرياض ، وكتاب مكتبات الإخوان
بالشعر ، وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب السرفات ، وكتاب
أشعار الملوك ، وكتاب الآداب ، وكتاب حل الأخبار ، وكتاب
طبقات الشعراء ، وكتاب الجامع في الغناء ، وهو من الكتب التي
اعتمد عليها صاحب كتاب الأغاني .

وكان إلى هذا حسن العمل بصناعة الموسيقى ، وله مذاهب
ومجادلات مع علماء عصره في الغناء ، وكان يميل إلى التجديد فيمثل
إبراهيم بن المهدى من العباسين قبله ؛ فلا يرى بأسا في أن يعمد
المusic أو المغني إلى لحن قديم فيغير فيه بعض التغيير . ليلائم بين
لحنه وحngerته . وكان له أيضاً مذهب عظيم في نقد الشعر يدل على

دقة نظره ولطف ما خذه إلى غير هذا مما يدل على أن حياته لم تكن
كلها مصروفة في الله .

ويشاء الله أن تطرق السياسة باب ابن المعتر في آخر حياته .
وأن يكون لها معه مأساة أشد من مأساة أبيه وجده . فيتفق جماعة
من رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب على خلع المقتندر بن المعتصد ،
وكان صغير السن لا يصلح للملك . على أن يولوا مكانه عبد الله بن
المعتر . وهو معتكف في داره لا يطلب هذا منهم ، فخلعوا المقتندر
وبايعوا عبد الله مكانه ، وكان من يخلعونه لا يقدر على مخالفتهم . كما
كان من يولونه لا يقدر على مخالفتهم أيضا . فأقام عبد الله في
الملك يوماً وليلة . ثم تجمع أصحاب المقتندر خاربوا أعوانه وشتوهم
وأعادوا المقتندر إلى الملك . فاختفى عبد الله في دار بعض أصحابه
فيبحث عنه المقتندر حتى عثر عليه فيها ، فسلمه إلى مؤنس الخادم
ليقتله ، فقتلته وسلمه إلى أهله ليدفنوه ، وكان هذا سنة ٢٩٦ هـ :

٩٠٨ - م .

منزلته في الشعر :

كان ابن المعتر من الشعراء المطبوعين الذين لا يتتكلفون ولا
يتعلمون إذا مضى على سجيته في التغزل ونحوه من ضرب لهوه ؛ فإذا
مضى في الوصف - وكان من أربع الشعراء فيه - تأثر بالبديع
الذى أتقن معرفته ونسب إليه اختراع علمه ، فأنى فيه بالتشبيهات
البديعية ، والاستعارات الجميلة ، متأثراً بما كان يحيط به من مظاهر
الجمال ومحاسن الطبيعة في بيته المترفة ، وهو في هذا يقرب جداً من

مدرسة أبي تمام ، ولهذا كان من شعره نروة ضخمة من الشواهد لعلماء البلاغة ، كما كان من شعر أبي تمام والبيحتري والمتني من زعماء هذه المدرسة .

وكان بعض علماء الأدب يطعن في شعره إرضاء للمقتدر ، فيخاطط بين الأدب والسياسة ، وهو طعن غير بريء كما ذكر صاحب الأغاني وقد ذهب في شعره مذهبًا وسطًا بين أنصاره وخصومه ، فذكر أنه إذا كانت فيه رقة الملوكيّة وغزل الظرفاء ولهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ، وأخرى ظريفة من أشعار الملوك في جنس ماهم بسيطه ، ثم أرجع هذا إلى البيئة التي نشأ فيها ، وذكر أنه لم يكن له أن يتشبه بفحول الجاهلية إذا وصف الصبور (١) في مجلس شكل ظريف ، بين ندائى وقيان ، وعلى ميادين من التور والبغسج والزرجس ، وما إلى ذلك ، فيعدل عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق الذي يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشية وإلى وصف البيد والمهامه والظبي والظلمي والناقفة والجلل والديار والقفار ونحو ذلك ، فإذا عدل عنه وأحسن لا يصح أن يقال له مسىء ولا أن يفmut حقه كله إذا أحسن الكثير ، وتوسط في البعض ، وقصر في البسيط ، وهذا هو الحق عندي في أمره وبه يكون قريبا من مدرسة أبي تمام في ناحية من شعره ، وقريبا من قدامى المولدin في ناحية أخرى .

وقد تصرف ابن المعز في كثير من فنون الشعر ، فقاله في المدح

(١) شرب الهر صباحتا

وإن كان قليلاً فيه ، لأن مقامه في العباسين كان ينبو عنه ، وقال في التغزل وما إليه ، وقال في السياسة مناصراً للعباسيين على العلوين كما سبق .

وله في الشعر التعليمي منظومتان :

إحداهما في نظم سيرة المعتضد ، وفيها كثير من أمور الدولة ، وظلم الحكام ، إلى غير هذا من المفاسد التي قضى المعتضد عليها ، واستحق المدح عليها عنده .

والثانية في ذم الصبيح ، وفيها كثير من الظرف والدعابة ، تخيل فيها صاحبها له أنكر عليه شرب الخمر في المساء ، فأخذ يحس له الصبيح على الفيوق ، لأنه يظهر الشارب على ما في البساطتين من جمال تم يستطرد إلى وصف الرياض بتشبيهاته البدعة ، ومعانيه المتكررة إلى غير هذا مما في هذه القصيدة التي تشبه القصص التمثيلية في عصرنا .

مختارات من شعره :

قال يمدح بعض ملوك بنى العباس ويصف قصرأ بناء :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر

ولا زلت فيما باقيا واسع العمر

حللت الزريا خير دار ومنزل

فلازال معموراً وبورك من قصر^(١)

(١) الزريا : اسم القصر

فليس له فيما بني الناس مشبه
ولا ما بناه الجن في سالف الدهر^(١)

وما زال يرعاه الإمام برأيه
 وبالعز والتقديم والنهي والأمر
 فتم ما في الحسن شيء يربده
 لسان ولا قلب بقول ولا فكر

سبعينى عليه من محسن قصره
 مدائح ليست من كلام ولا شعر
 يشير إلى رأى مصيبة وحكمة
 وجود لدى الإنفاق بالبيض والصفر^(٢)

جذان وأشجار تلقت غصونها
 فأورقن بالأثمان والورق الخضر
 ترى الطير في أغصانهن هواتفها
 تنقل من وكر لمن إلى وكر
 هجرت سواها كل دار عرفتها
 وحق لدار غير دارك بالهجر
 وبنيات قصر قد علمت شرفاته
 كصف نساء قد تربعن في الأزر^(٣)

(١) ما بناء الجن ذُعْمَ من مزاعم العرب في جاهليتهم

(٢) البيض : الدارهم لأنها من الفضة ، والصفر : الدنانير لأنها من الذهب

(٣) شرفاته : من ثلاثة أو مربعات تبني متقاربة في أعلاه ، والأزر : جمع إزار

ثم قال :
وَمَا لِيْثُ غَابٌ يَهْدِمُ الْجَيْشَ خَوْفَهُ
بِعَمْشِيَّةٍ وَنَابٌ عَلَى النَّهْيِ وَالْزَّجْرِ
يَجْرِي إِلَى أَشْبَالِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ
عَقِيرَةٌ وَحَسْنٌ أَوْ قَتِيلًا مِنَ السَّفَرِ^(١)
يَزْعِزُ أَحْشَاءَ الْبَلَادِ زَئِيرَهُ
وَيَبْطِلُ أَبْطَالَ الرِّجَالِ مِنَ الدَّعْرِ
بِأَجْرًا مِنْهُ حَدٌ بَأْسٌ وَعِزْمَةٌ
إِذَا مَا تَرَى قَلْبَ الْجَبَانِ إِلَى النَّحْرِ
فَكُلَّ أَنَاسٍ يَشْهُرُونَ أَكْفَهُمْ
دُعَاءً لَهُ بِالْعَزِّ فِيهِمْ وَبِالنَّصْرِ

(١) الأشبال : أولاد الأسد

وقال في الخمر وما إلهه :
 لا عذر للعادل في الكاس
 فما أرى في الكاس من باس^(١)
 وبلى من الناس ومن لومهم
 ما لقي الناس من الناس^(٢)
 من خطف الخصر هضيم الحشا
 مشرق بالوعدة مكاس^(٣)
 وقام في العاتق هنديله
 يدبر كأسا بين جلاس^(٤)
 وشرر الذيل إلى خصره
 وحشنا بالرطل والكاس^(٥)
 وطالما عذبني هجره
 لما أتنى رسنه بالرضا
 ولم أزل والليل ستر لنا
 أشكوا إلى غمرة عينيه ما
 قاسيته من قلبه القاسي
 لست لها ما مثلها ليلة
 في ليلة ما عشت بالناسي

(١) باس بأس بتخفيف الهمز كأنكاس

(٢) ما لقي استفهام تعجب

(٣) منطف الخصر : دقيقة . وكذلك هضم الحشا ومكاس : مما طل

(٤) العاتق : ما بين المنكب والعنق

(٥) حشنا : أسرع علينا

وقال في الشيب :

من يشتري مشيبي بالشعر الغريب (١)
من يشتري مشيبي وليس بال المصيб
نور الرؤوس واللحى وظلمة القلوب
أين الغوانى والصبا والعذر فى الذنب (٢)
هيبة ليس شيبى من ذاك بالقرب
قد اغتدى بقارح مسوم بعوب (٣)
بنق الحصا بمحافر كالقدر المكوب
وضحكت غرته فى موضع التقليب (٤)
إذا أغذت أربعة لفتها المطلوب (٥)
لم ينقطع غبارها قبل دم مصبوب

وقال في مدح المكتفى :

للمكتفى دولة مباركة عاش بها الناس بعدهما هاتوا
بلوح من تحت تاجه قمر وافي به للسعود ميقات (٦)
خليفة لا يخيب سائله سرت به الأرض والسماءات
ما ولدت هاشم له شبهها من أين من أين مثله هاتوا

(١) الغريب الشديد السوداد

(٢) الغوانى الحسان ، والصبا الميل الى اللهو واللعب أو الصفر

(٣) القارح من ذوي الحافر ماشق نابه وطلع ، ومسوم معلم ، وبعوب سريم

(٤) التقليب العبوس (٥) أغذت أسرع ، وفتها مصيدها

(٦) السعدوكواكب عشرة يقال لـ كل واحد منها سعد ، وكانوا يتفاعلون بها

وميقات موعد

وهذا وما سبق له في المدح من مبالغاتهم في مدح أولئك الملوك،
مع انهم كانوا بمكان من الضعف ، ولم يكن لهم من الأمر شيء ،
وإنما كان لوالهم من الترك ، وكذلك لم يكونوا بما يصفونه من
العدل ونحوه ، ويكتفى أن ملوكهم كان يقوم على الغلبة والقهر ،
لا على رضا و اختيار من الأمة ، ولم يكن لا بين المعتر أن يمدح بغير
هذا وهو ينتصر لهم في هذا الملك المفترض ، ويرى أنهم أحق به من
غيرهم ، وكان فيما أصيّب به في أبيه وجده ما يجعله يقتصر في مدحهم
والتعصب لهم .

الشريف الرضي

نسبة وموالده :

هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى الأبرش ، ابن محمد أبي الطيب ، بن موسى أبي سبحة ، بن ابراهيم المرتضى ، ابن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ، بن الحسين الشهيد ، بن على ابن أبي طالب ، رضى الله عنهم جميعا ، وأمه فاطمة بنت الحسين بن الحسن الناصر الأصم صاحب الديلم بن على ، بن الحسن ، بن على ، بن عمر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب ، فهو شريف النسب لأبيه وأمه ، مما كان له أثر عظيم في علو همته وكرم نفسه .

وكان مولده سنة ٩٦٩ م - ببغداد قاعدة الدولة العباسية .

نشأته وسيرته :

نشأ الشريف الرضي في ذلك البيت الكريم ، وكان أخوه الشريف المرتضى يقاربه في السن ، وكان أبوه وأجداده على مذهب الشيعة الإمامية ، يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسين ، فكانوا يتحينون لها الفرص ، ويعلمون على الوصول إلى حكمهم ، وكان

فتوات أمهمما تربى بهما تعدد هما لما يليق بشرفهمها من المراتب العالمية، والدرجات الرفيعة ، فنشأ كل منها عالماً أديباً ، ولكن الشريف الرضي غالب عليه الشعر ، أما الشريف المرتضى ف غالب عليه الفقه والكلام والجدل ، وهو من أكبر أئمة الشيعة فيما غالب عليه من ذلك .

وكان الشريف الرضي من تأثر في شعره بمدرسة أبي قاسم، فكان شعره ضخم اللفظ ، دقيق المعانى ، وقد قال الشعر وهو في العاشرة من عمره ، وما قاله وهو في الرابعة عشرة من عمره ، يخبر أباه في منفاه بوفاة عضد الدولة ملك بنى بويه ، وكانوا على مذهب الشيعة الإمامية:

(١) ألوكا وسالة ، والطود الجبل العظيم استعارة لعهد الدولة ، ساخ غاب وذهب
(٢) ماخ انطفأ

(٢) ماخ ا نطفاً

(٣) الفنيد الفحل المكرم لا يؤذى ولا يركب لكرامته ، خاوي به الردي أستطنه

وهو شعر يدل على تأثره بتلك المدرسة إلى حد بعيد ، لنشأته في بيت عربي ، ولأخذه بدراسة أدبية منذ نشأته ، وقد سار على هذا النهج في شعره ، حتى بلغ به مبلغ خمول تلك المدرسة ، واستعمله في أغراضها من المدح والفاخر والغزل وما إليها من أغراض الشعر .

ولكنه لم يتكسب بشعره كما تكسب أبو تمام والبحترى ، بل كان يمدح ملوك بنى العباس وكبار الدولة مدح الندى ، ولمناسبات تقتضى ذلك المدح ، كما يقول للقادر العباسي :

عطفاً أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلماء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كلانا في العلة مغرق^(١)
إلا الخلافة طوقتك فإبني أنا عاطل منها وأنت مطوق

وكان كبار الدولة يعرفون له كرم نفسه فيكرمونه ويرفعون منزلته ، حتى إنه دخل يوماً على خفر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وسلطان الدولة من بعده ، فرفع منزلته وأجلسه في دسته^(٢) ثم قبع إلى جانبه وعظمه وأجله ، وخلق ما بين يديه من القصاصات والرقاء^(٣) وأقبل عليه يحادثه ويستمع إليه إلى أن انصرف . ثم دخل على الوزير بعده أخوه الشريف المرتضى ، فلم يفعل معه ما فعل مع الشريف الرضا ، بل اكتفى بالترحيب به وقضاء

(١) مغرق استعارة من عرق الشجر امتدت عروقه في الأرض.

(٢) الدست صدر انيت والمجلس .

(٣) الرقاء جمع رقمة وهي القطعة التي تكتب من الورق.

حاجته . وكان في المجلس أبو حامد أحمد بن محمد الأسفرايني الفقيه الشافعى ، فاستغرب ما فعله الوزير وقال : أصلاح الله الوزير ، هذا المرتضى الفقيه المتتكلم صاحب الفنون ، وهو الأمثل والأفضل^(١) . وقد رأيتك تجل أخاه الشاعر وتفعل معه ما لم تفعله مع أخيه . فقال الوزير وقد أخذ بيده كتابا . احصل به أنه قد ولد للرضي ولد ، فأنفقت إلية ألف دينار . وقلت : هذه للاقبة ، وقد جرت العادة أن يحمل الاصدقاء إلى أخلاطهم وذوى مودتهم مثل هذا في مثل هذه الحال . فرد لها وكتب إلى هذا الكتاب يعتذر فيه بقوله : إننا أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابله غريبة ، وإنما عجائزنا يتولين هذه الأمر من نسائنا ، ولسن من يأخذ أجرة ولا بقبلن صلة . وقد ردت إليه المبلغ ثانية وقلت للحاجب : يفرقه الشريف على ملازميه من طلاب العلم . فقال الشريف للحاجب حين وصل : هام حضور . فليأخذ كل واحد ما يحتاج إليه . فقام رجل فأخذ جزء من دينار ورجع . فسأله الشريف عن ذلك . فقال : احتجت إلى دهن السراج ليلاً ولم يكن خازنك حاضرا . فاقترضت الدهن من بقال . وقد أخذت هذه القطعة لأدفعها إليه عوض دهنه . وقد عاد الحاجب بالدنانير وذكر لي القصة . وزاد بأن الشريف أمر بخزانته فصنع لها مفاتيح بعدد طلاب العلم عنده ليتناول كل منهم ما يحتاج إليه عند غياب الخازن . أما المرتضى فقد أصاب أرضا له ضريبة تعادل الدينار الواحد . حملناها أرضه وأرض حيراته بغية حفر قناة يستفيد منها

(١) هنا يدل على تقارب ما بين العلماء المنصفين من أهل السنة والشيعة في ذلك العهد .

الجميع ، فكتب إلى طالباً إسقاط المدينار ، وبعث برسالة كلها هز أريحية ، فـأيـهـما تـرـى أـوـلـىـ بالـتعـظـيمـ وـالتـبـجيـلـ ؟ـ هـذـاـ العـالمـ المـتـكـلـمـ الفـقـيـهـ الـأـوـحـدـ ،ـ أـمـ ذـاكـ الـذـىـ اـشـهـرـ بـالـشـعـرـ وـنـفـسـهـ تـلـكـ النـفـسـ ؟ـ فـقـالـ أبوـ حـامـدـ :ـ وـالـلـهـ مـاـ وـضـعـ سـيـدـنـاـ الـوـزـيـرـ الـأـمـرـ إـلـاـ فـيـ مـوـضـعـهـ ،ـ وـلـاـ أـحـلـهـ إـلـاـ مـحـلـهـ .ـ

والقصة تفيد أن الرضي كان يجمع بين الشعر والعلم ، وإن لم يبلغ في العلم مبلغ أخيه المرتضى ، فكان له طلاب يطلبون علمه كما يطلبون شعره ، وكان له مصنفات تدل على مبلغه في العلم : منها متشابه القرآن ، ومجازات الآثار النوية ، ونهر البلاغة ، وتلخيص البيان عن مجازات القرآن ، والخصائص ، وسيرة والده ، والحسن من شعر الحسين – منتخب شعر ابن الحجاج – وأخبار قضاء بغداد ، ورسائله وتقع في ثلاثة مجلدات ، وديوان شعره ، وذكر الشيخ أبو الحسن العمري أنه شاهد مجلداً من تفسير القرآن منسوباً إليه مليحاً حسناً ، يكون بالقياس في كبر تفسير أبي جعفر الطوسي أو أكبر .

وقد تحسنت العلاقة بين أبي أحمد الحسين وولديه الرضي والمرتضى وبين العباسين ، فعاد أبو أحمد إلى بغداد ، وتولى الرضي نقابة الطالبين من العباسين ، وخفت حدة النزاع بينهما على الخلافة حين صارت خلافة إسمجية لا يحسد العباسيون عليها ، وحين استبد ملك بن بويه وغيرهم بهم ، وصاروا يولون ويعزلون كما يشاءون فيهم ، فلم يجد العلويون والعباسيون إلا أن يتقرب بعضهم إلى بعض

فِي هَذِهِ الْمُحْنَةِ . لَا هُنْ أَبْنَاءُ أَعْمَ . وَلَا يَقُولُ لَهُمْ بَنُو بُوْيَةَ وَغَيْرُهُمْ
مَا يَخْتَلِفُونَ عَلَيْهِ .

وَمِنْ هَذَا مَا حَصَلَ مِنَ الرَّضِيِّ حِينَ قَامَ بِنَفْسِهِ شَيْءٌ مَا كَانَ
يَقُولُ بِنَفْسِهِ الْعَلَوَيْنَ فَقَالَ :

مَا مَقَامِي عَلَى الْهَوَانِ وَعَنِّي
مَقْوُلٌ صَارَمْ وَأَنْفَ حَمِي
وَإِبَاهُ مَحْلُقُ بَيْ عنِ الْضَّيْهِ
يَمْ كَمَا رَاغَ طَائِرُ وَحْشِي^(۱)
أَلْبَسَ الذَّلِّ فِي دِيَارِ الْأَعْدَادِيِّ
وَبِمَصْرِ الْخَلِيفَةِ الْعَلَوَيِّ^(۲)
مِنْ أَبْوَهِ أَبِي وَمُولَاهُ مُولاً
إِنِّي إِذَا ضَامَنَ الْبَعِيدَ الْقَعْدِيِّ
لَفَ عَرْقَ بَعْرَقِهِ سَيِّدَا الْفَلَانِ
سَ جَيِّعاً مُحَمَّدٌ وَعَلَى

فَعَدَ الْقَادِرُ بِاللَّهِ الْعَبَاسِيِّ مَجْلِسًا اسْتَحْضَرَ فِيهِ وَالَّذِي رَضِيَ وَأَخْاهَ
وَطَائِفَةً مِنْ وُجُوهِ الْقَوْمِ ، ثُمَّ قَالَ لَوْلَدِ الرَّضِيِّ : قَلْ لَوْلَدُكَ مُحَمَّدٌ .
أَيْ هُوَانٌ قَدْ أَقَمَ عَلَيْهِ عِنْدَنَا ؟ وَأَيْ ضَيْمٌ لَقِيَ مِنْ جَهَنَّمَ ؟ وَأَيْ ذَلِّ
أَصَابَهُ فِي مَلْكَنَا ؟ وَمَا الَّذِي يَعْمَلُ مَعَهُ صَاحِبُ مَصْرَ لَوْمَضَنِي إِلَيْهِ ؟
أَكَانَ يَصْنَعُ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ صَنْيَعَتَنَا ؟ أَلَمْ نُولِهِ النِّقَابَةَ ؟ أَلَمْ نُخْكِنَهُ فِي

(۱) رَاغَ ذَهَبَ هَنَا وَهَنَا .

(۲) يَعْنِي خَلِيفَةَ الْفَاطِمِينَ بِمَصْرِ .

المظالم ؟ ألم نستيخلقه على الحرمين والخجاز وجعلنا أمير الحجيج ؟
فهل كان يحصل من صاحب مصر أكثر من هذا ؟

ويغلب على ظني أن هذا الشعر مدسوس على الرضى . لأن
الفاطميين بهصر كانوا شيعة إسماعيلية . وأبو أحمد وأولاده كانوا
شيعة إمامية ، وكان بين الطائفتين من الخلاف مثل ما كان بين
العباسيين والعلوبيين .

وكانَ وفاة الرضى سنة ٤٠٦ هـ ١٠١٥ م ، وقد ثار كثير
من الشعراء . ورثاه أخوه المرتضى فقال :

يا للرجال لفجعة جذمت يدى
وودت لو ذهبت على براسي^(١)
ما زلت أصدر وردها حتى أنت
فسوتها في بعض ما أنا حاسى^(٢)
ومطلتها زمانا فلما صدمت
لم يثنها مطلى وطول مكامي^(٣)
الله عمرك من قصير طاهر
ولرب عمر طال بالأدناس

(١) جذمت قطعت بسرعة .

(٢) ورد الماء ذهب إليه ، وصدر عنه وجع بعد الورد ، حسوتها شر بتهاشيشا
بعد شيء .

(٣) مكامي مأخوذ من ماقسة شاكسة .

منزلته في الشعر :

قيل : إن الرضي أشعر قريش . وحسبك أن يكون أشعر قبيلة في أولها مثل الحارث بن هشام . وهبيرة بن أبي هب . وعمر بن أبي ربيعة ، وفي آخرها مثل محمد بن صالح الحسيني . وعلى بن محمد الجماني ، وابن طباطبا الأصفهاني . وإنما كان أشعر قريش لأن المجيد فيها ليس بمعتذر ، والمكثر ليس بمجيد ، والرضي قد جمع بين الإكثار والإجاده ويرد على هذا عندي عمر بن أبي ربيعة ، فقد جمع بين الإكثار والإجاده أيضا ، إلا أن يقال إن أكثر شعره في الغزل .

مختارات من شعره :

قال في الغزل :

هل ناشد لي بحقيقة الحمى غزيلا صر على الركب^(١)
افلت من صائفه غرة وعاد بالقلب إلى السرب^(٢)
لعب الصبا بالغضن الربط^(٣)
بلاد النعمة في طبعه منعم يعطف منه الصبا
وربما ناقش في الحب أما اتقى الله على ضعفه
معدب القلب بلا ذنب^(٤)
ياما طلا لي بديون الهوى من دل عينيك على قلبي
وفي أيامه الثلاثة الأخيرة معان رقيقة مستحدثة في الغزل . وظني
إنه لم يسبق إليها .

(١) غزيلا تصغير غزال استعارة لحسناه .

(٢) السرب جماعة الغزلان .

(٣) الصبا بكسر الصاد الفتاء وبفتحها ربيع مهبا من الشرق .

(٤) معدب اسم فاعل وهو فاعل اتقى .

ومن شعره في الرثاء ما قاله في رثاء جده الحسين شهيد كربلاه ،
وهو آخر ما نظمه ، وكان يمشي الحسين في كربلاه حين قاله :

كربلا لا زلت كربلا وبلا
ما لقي عندك آل المصطفى^(١)
كم على تربك لما صرعوا
من دم سال ومن دمع جرى
كم حصان الذيل يروي دمعها
خذلها عند قتيل بالظها^(٢)
تمسح الترب على إعجاها
عن طلى نحر رميل بالدماء^(٣)
وضيوف لفلاة قبرة
نزلوا فيها على غير قري^(٤)
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا
بحجا السيف على ورد الردى^(٥)
تكسف الشمس شموسا منهم
لا تدانيها ضياء وعلاء

(١) كربلا مقصود كربلاه ، ما لقي استفهام تعجب .

(٢) حصان الذيل كنایة عن العفة .

(٣) الطلى الأعناق رميل بالدماء ملطخ بها .

(٤) القرى طعام الصيف .

(٥) الجدا المطر وإضافته للسيف من اضافة المشبه بهالي المشبه .

وتنوش البحوش من أجسادهم
أرجل السبق وأيمان الندى^(١)

وجوها كالمحايسح فن
قر غاب ونجم قد هوى
غيدتهن الليالي وغدا
جائز الحكم عليهن البلا^(٢)
يا رسول الله لوعاينتهم
وهم ما بين قتل وسبا
من رميس يمنع الظل ومن
عاطش يسوق أنابيب القنا^(٣)
ومسوق هائز يسعى به
خلف محول على غير وطا
متعب يشكوا أذى السير على
نقب المنسم مجزول الطا^(٤)
لرأتك عيناك منهم منظرا
للحشا شحواً وللعين قدى
ليس هذا لرسول الله يا
أمة الطغيان والبغى جزا

(١) تنوش تتناول .

(٢) البلا فاعل غدا .

(٣) رميس متعرق القدمين من الحر . القنا الرماح .

(٤) نقب المنسم أصابة الحفل مجزول المطا مجروح الظهر .

غارس لم يأْلَ فِي الْفَرْسِ لَمْ
فَأَذَاقُوا أَهْلَهُ مِنْ الْجَنِّ^(١)
جزروا جزر الأضاحى نسله
نم ساقوا أهله سوق الإما^(٢)
معجلات لا يوارين ضحى
سنن الأوجه أو بعضاً الطلى^(٣)
هاتفات برسول الله في
بهر السعي وعثرات الخطى^(٤)
أدرك الكفر بهـ ناراته
وأدبل الغى منهم فاشتفق^(٥)
يا قتيل قوض الدهر بهـ
عمداً ل الدين وأعلام المدى
قتلوه بعد علم منهم
أنه خامس أصحاب الكسا^(٦)
خمسلوه بدم الطعن وما
كفنوه غير بوغاء النزى^(٧)

(١) لم يأْلِ لم يَقْصُرُ.

(٢) الاما مقصور الاما .

٣) سن الأوجه صورها ، والطلي الأعناق .

(٤) الهر انقطاع النفس .

(٥) أدب الفم، منهم جعلت له الكراة علمهم.

(٦) بين خامس، خمسة جهود المصطفى في كبسائه على ما هو معلوم :

(٧) بو غاء الترى و خو التراب .

مرهقا يدعوا ولا غوث له
بأب بر وجد مصطفى
وبأم رفع الله لها
علينا ما بين نسوان الورى
أى جد وأب يدعوهما
جد يا جد أغثني يا أبا
كيف ام يستعجل الله لهم
بانقلاب الأرض أو رجم السما
إلى أن قال :

لرسول الله يحيى بعده قعد اليوم عليه للعزاء
معشر منهم رسول الله والـ
صهره الباذل عنه نفسه وحسام الله في يوم الوعي^(١)
ثم مضى في ذكرهم إلى أن قال :
يا جبال المجد عزا وعلى
جعل الله الذي ناكم سبب الوجد طويلاً والبكاء
لأرى حزنكم ينسى ولا رزءكم يسللي وإن طال المدى
وهو متاثر فيها بها شهوان الكميـت بن زيد الأـسى إلى حد بعيد :

(١) صبره: بدل من السكاشف ، يعني على بن أبي طالب.

الشريف المرتضى

نسبة :

هو علي بن أبي أحد الحسين بن موسى الأبرش بن محمد الأعرج بن أبي سبحة موسى بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : ويعرف بالشريف المرتضى . وهو أخو الشريف الرضى .

حياته :

ولد ببغداد في شهر رجب من سنة ٩٦٥ هـ . ونشأ بها هو وأخوه الرضي في كنف أبيهما أبي أحد ، وكان نقيب الطالبيين ببغداد وعالهم وزعيمهم . وكان يجمع إلى رئاسة الدين زعامة الدنيا . لعلو همةه . وعظيم هيئته . حتى إن عضد الدولة البويري كان يخشأ لأنَّه كان من حاز ابن عمِّه بختيار بن معز الدولة . فحين قدم العراق قبض عليه في صفر من سنة ٣٦٩ هـ . واعتقله في قلعة بشيراز . فمكث بها إلى أن مات عضد الدولة سنة ٣٧٣ هـ فلما تولى شرف الدولة بن عضد الدولة أطلقه واستقدمه معه إلى بغداد . وأعاده إليه نقابة الطالبيين . وقلده قضاة القضاة وولاية الحجج والمظالم .

ولكنه لم ينظر في قضايا القضاء لامتناع القادر بالله العباسى عن الإذن له به . فورث عنه ابنه المرتضى والرضى ما كان له من علو المزلة . وبعد الهمة .

وكان أبو أحد من الشيعة الإمامية فنشأ ابنه المرتضى على مذهبة . ودرس هو وأخوه الرضى على كثير من علماء عصره في مختلف العلوم والفنون . ومن أخذنا عليه الشعر والأدب أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباته السعدي . وأبو عبد الله محمد بن عمر أن المرزباني . ومن أخذنا عنه الفقه والأصول محمد بن النعيم المعروف بالشيخ المفيد ، وهو الذي انتهت إليه رئاسة الإمامية في عصره في الفقه والكلام والحديث .

و كانت دراسة المرتضى أوسع من دراسة الرضى ، لأن نزعة المرتضى كانت علمية أكثر منها أدبية . وهذا غلب في نزعة العلم على نزعة الشعر . وغلبت في الرضى نزعة الشعر على نزعة العلم . فكان المرتضى عالماً واسعاً بالمعرفة ، غير الأطلاع . مما يفتون . الثقافة الإسلامية التي كانت مزدهرة في عصره . حتى كان فقيه الشيعة الإمامية ومتكلماً بها بعد وفاة شيخه المفيد . وكان إماماً في علم الكلام والفقه والأصول والأدب واللغة والتفسير والتاريخ والترجم وما إليها من علوم عصره وفتوته .

وبهذا اختلفت نزعة الأخرين فكان الرضى طموحاً متطلباً للرئاسة حتى إن كان يعني نفسه بالخلافة . أما المرتضى فكان مشغوفاً بالعلم منتصراً إليه بين دراسة وتدريس . حتى إنه اتخذ من

داره و كانت واسعة ، مدرسة لتدريس الفقه والكلام والتفسير واللغة والشعر والعلوم الأخرى كعلم الفلك والحساب وغيرها . وكان يسمى بها دار العلم ويتحذ له فيها مجلسا للمناظرات . وكان الطلاب يقصدون فيها على اختلاف ملتهم ومذاهبهم . ومن أخذ عليه بعض اليهود إذ أخذ عليه علم النجوم أي علم الفلك^(١) وكان يقتني المدرسة مكتبة واسعة بلغت مجلداتها فيما يقال ثمانين ألف مجلد . وقامت بثلاثين ألف دينار .

و كذلك كان مجلس مناظرته يتسع للعلماء على اختلاف ملتهم ومذاهبهم . مما يدل على مرونته في الدين . وعلى واسع علمه وثقافته ، وقد وصف ابن الجوزي مجلسه فقال : إنه كان يناظر عنده في كل المذاهب . وقال محمد بن يحيى بن مبارك الحمصي في سماحته الدينية والعلمية : ما رأيت رجلاً من العامة إلا وهو يشني عليه . وما رأيت من يبخسه حقه . وما رأيت إلا من يزعم أنه من طائفته . وهذا لا يمنع عندي أنه كان شيعياً إمامياً . لأنَّه لا يدل إلا على أنه كان متسبحاً في مذهبِه . ولم يكن متربتاً فيه كمن يتركت في مذهبِه من الفرق الإسلامية .

وقد سئل عنه أبو العلاء المعري بعد أن حضر مجلسه وكأن قد
قصد إليه من المرة ف قال :

يأسئلني عنه لما جئت أسلمه
لو جئت به لرأيت الناس في رجل
فإنه الرجل العاري عن المار
والدهر في ساعة والأرض في دار

(١) ستاني قصته في ذلك .

ويقال إن جرت مناظرة في مجلس المرتضى بينه وبين أبي العلاء في مسائل فلسفية قال له في ختامها : ألا كل ملحد ملحد أى ظالم . لأنه يقال : ألد الرجل إذا عدل عن الدين وألهد إذا ظلم . وقد قال الله تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) ثم منعه من العودة إلى مجلسه . وطعن بعضهم في صحة هذا بأن أبو العلاء لم يتم بالإلحاد إلا بعد عودته من بغداد إلى المعزه ولزومه منزله فيها .

ويقال أيضاً : إن أبو العلاء كان يتعصب للمتنبي وكان المرتضى يتعصب عليه . فتنقصه يوماً في مجلسه وجعل يتبع عيوبه . فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله * لك يا منازل في القلوب منازل * لـ^{كفا}ه فضلاً . فغضب المرتضى وأمر فسيح برجله وأخرج من مجلسه . ثم قال لمن بحضرته : أتدرون ما أراد بذكر هذه القصيدة ؟ فقيل له : أنت أعرف . فقال أراد قوله فيها : وإذا أتيك مذمتي من ناقص فهى الشهادة لي بأنى كامل وبعضهم طعن في صحة هذه القصة أيضاً . لأنَّ أبو العلاء زنى والدر المرتضى قبيل مفارقته بغداد بقصيدة أثني فيها على المرتضى والرضى فقال :

أبقيت علينا كوكبين سناهما في الصبح والظلام ليس يخاف
متأنقين وفي المكارم أرتها متألقين بسُؤدد وعفاف
ساوى الرضى المرتضى وتقاسما

خطط العلا بتناصف وتصاف

فلو جرى ذلك من المرتضى له لما أثني عليه هذا الثناء .

وكان المرتضى مهذلته لدى ملوك بنى العباس كأبيه وأخيه مع
مخالفتهم لهم في المذهب . لأن هؤلاء الملوك كانوا سنيين . فلما مات
أخوه الرضى ولاه القادر بالله نقابة الطالبين وأمر الحج والمظالم ،
وقد عاصر المرتضى أربعة منهم ، وكان شديد الاتصال بهم . وصاحب
مشورتهم . وسفيرهم في أكثر ملتماتهم إلى الملوك والوزراء وغيرهم .
ومن شعره كثير في مدائحهم . كما كان لأخيه الرضى أيضا .
ولعلهما كانوا يقصدان بهذا رفع شأنهم إدھان على المتغلبين عليهم من
ملوك بنى بويه وغيرهم . وهم أبناء عمومتهم . وفي هؤالئم
هوان لهم .

وكانت وفاة المرتضى خمس بقين من شهر ربيع الأول من سنة
٤٣٦ هـ : ١٠٤٤ م - ونقل عنه أنه قال عند وفاته :

لأن كان حظى عاقني عن سعادتي

فإن رجائي وائق بحليم

وإن كنت في زاد التقى والتقي فقيرا فقد أمسكت ضيف كريم

عقيدته وأخلاقه :

كان المرتضى يأخذ بمذهب الشيعة الإمامية . وهم ينقسمون
من الناحية الفقهية إلى قسمين :

١ - أخباريين يمنعون الاجتہاد في الأحكام الشرعية ، ويعملون
بالأخبار الواردة عندهم عن النبي صلی الله عليه وسلم وأهل بيته .
ويرون أن ما فيها قطعى السند أو موثوق بصدروره . فلا حاجة إلى

البحث في سندها ولا إلى تقسيم أحاديثها إلى الصحيح والحسن وغيرهما، لأنها كلها صحيحة، ولا حاجة بعد هذا إلى ما يسمى بعلم أصول الفقه.

٢ - وأصوليين يقولون بالاجتهاد، وينأخذون بالأصول الأربع في استنباط الأحكام الشرعية، وهي الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل، ورأيهم في أخبارهم أنها غير قطعية السند، وأن أحاديثها مختلفة المراتب.

والمرتضى من القسم الثاني، فكان في جميع كتبه ورسائله أصولياً بحثاً، ومجتهداً صرفاً، قائم التعليق بالأخبار كثير الاستدلال بالأدلة العقلية الموافقة لكتاب والسنة المتواترة، لأنه كان لا يعول على أخبار الآحاد.

والشيعة الإمامية توافق المعرلة في كثير من مذاهبهم الكلامية، كالقول بنفي الصفات عن الله تعالى وأنها عين ذاته، والقول بالحسن والقبح العقليين؛ وتخالفهم في مذهبها في الإمامة وأنها بالنص الجلى وفي قولهم بخلق القرآن ونحو ذلك.

وكان المرتضى يقول بقول جماعته في ذلك؛ ولهذا يتهمه بعض أهل بعض السنة بأنه كان من أهل الاعتزال، ومثل هذا لا قيمة له الآن في عصر انتشرت فيه حرية الرأي على جمود أصحاب التقليد.

أما أخلاقه فكان فيها على ما سبق في الكلام على حياته، ولكن بعضهم يرميه بأنه كان بخيلاً حريصاً على الدنيا بخلاف أخيه الرضي ويستدل على هذا بقصتهما عند الوزير محمد بن خلف، وقد ذكرت

فـالكلام على الرضى وبعضاً من يطعن فيها بأنها مضطربة ، لأنها في هذه الرواية كانت عند هذا الوزير ، وفي رواية أخرى أنه كان الوزير أبي محمد المهلي على أنه لا يقدح في المرتضى أن يسأله رفع ضريبة عنه قدرها عشرون درهما إذا كان يراها ظلما ، وإنما يقدح فيه أن يسأله صلة على عادة الشعراء المتكتسين بشعريهم ، ولا يصح أن يرمى بالبخل من فتح داره لطلاب العلم على كثرةهم ، وأجرى عليهم من الحزارات ما يفي بمحاجتهم . ولا يصح أن يرمى بالحرص على الدنيا ومن نوادره في الكرم أن أبي الحسن الفالي باعه نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد بستين ديناً - لا عشرين درهما - فلما تصفحها وجد فيها أبياتاً بخط أبي الحسن :

أنست بها عشرين حولاً وبعثها

لقد طال وجدى بعدها وحنبى

وما كان ظنى أنى سأبعها ولو خلدتني في السجنون ديبونى
 ولكن لضعف واقتفار وصبية صغار عليهم تستهل شؤونى^(١)
 فقلت ولم أملك سوابق عبرة مقالة مكوى الفؤاد حزين
 وقد تخراج الحاجات يا أم مالك كرائم من رب بهن ضئين^(٢)
 فرد النسخة إليه وترك له المداناير .

وقد افتخر المرتضى بالكرم في كثير من شعره كما قال :

(١) شؤونى : دموعى .

(٢) هنا البيت لأعرابي باع جلا لحزة بن عبد الله بن الزييد بخمسين ديناً
 ثم جعل ينظر إليه ويقول ذلك ، فوهبه له والدناير .

دعى منظري إن لم أكن لك رائعا
 ولا تنظرى إلا إلى حسن مخبرى
 فما يرى وخير القول ما كان صادقا
 لدى الفخر سباق إلى كل مفخر
 وأعلم أن الدهر يبعث صرفه
 بما شاء من مال البخيل المقتر
 نجح إلا للجوؤر المبذور
 عذلت على تبديع ما في وهل ترى
 أفرقة من قبل أن حال دونه رحيلي عنه بالحمام المقدر
 وكأن كرمه بذلك شاملا لكل من يقصده ولو لم يكن من أهل
 دينه . كما فعل مع يهودي أفلس عندما أصاب الناس قحط شديد .
 فاحتال لتحصيل قوت يحفظ نفسه خضر يوم مجلس المرتضى فاستأذنه
 أن يقرأ عليه شيئا من علم النجوم . فأذن له وأمر له بجائزة تجرى
 عليه كل يوم ، فقرأ عليه شيئا من علم النجوم . فرأى له وجها زاهى تجري
 عليه كل يوم ، فقرأ عليه برهة ثم أسلم على يده .

وهذا كما يدل على كرمه يدل على سماحته في دينه . ويبدل عليها
 أيضا ما كان له من صلة وثيقة بأبي إسحاق الصبابي فلم يشبهها شائبة
 من اختلافهما في الدين إلى أن أدركه أبو إسحاق الوفاة . فرثاه
 في شعره رثاء حسنا كما رثاه أخوه الرضي . وفي رثائه يقول :
 ما كان يومك يا أبو إسحاق إلا وداعي للمني وفارق
 وأشد ما كان الفراق على الفتى ما كان موصولا بغیر تلاق
 ولقد أثانى من مصالبك طارق لكنه ما كان كالطراق
 على تفخيم لفظ الشعر وتجويده معناه ليعود إلى أسلوبه الذي كان
 عليه في عهد الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وإن كان على نحو
 آخر يلائم ما ظهر من التفاقات بين العرب بعد اختلاطهم بغیرهم من
 الأمم ، ونهاية الإسلام بهم في دينهم ودنياهم .

مختارات من شعره :

قال في الغزل :

وقال فيه أيضاً :

ياخليلی من ذوابة قیس
علانی بذکرهم نظر بانی
وخذ النوم من جفونی فانی

يأكليلى من ذئابة قيس فى التصانى رياضة الأخلاق
علانى بذكرهم تطربانى واسقينى دمعى بكأس دهاق
وخذ النوم من جفونى فإنى قد خاعت الكرى على العشاق
وللبيت الأخير قصة له مع ابن المطرز الشاعر . وكان جالسا
فى علية له فأخرج رأسه من نافذة لها فرأى ابن المطرز يجر نعالا
بالية وهى تشير الغبار ، فأمسى به فاحضر وقال له : أنشدنى أبياتك
التي تقول فيها :

سری مفرما بالعيش ینتجمع الرکبا

بسم الله الرحمن الرحيم

على عذبات الجزع من ماء تغلب

غزال پری ماء القلوب له شربا

إذا لم تبلغني إليكم ركائزی

فلا وردت ماء ولارعت العشبا

فَلِمَّا أَنْشَدَهُ إِيَّاهَا وَاتَّهَى إِلَى هَذَا الْبَيْتِ أَشَارَ الْمَرْتَضَى إِلَى نَعْلَهُ

الباiley وقال : أهذه كانت من ركائبك ؟ فأطرق ابن المطرز ثم
قال : لما عادت هبات سيدنا الشرييف إلى مثل قوله :

وخذ النوم من جفونى فإنى

قد خلعت السكري على العشاق

عادت ركائبى إلى مثل ما ترى . لأنك خلعت مالا تملأك على
من لا يقبله ، وهى قصيدة طويلة على هذا النحو من فخامة الألفاظ
وجزالتها . وفي آخرها يقول فيما بينهما من الاختلاف في العنصر
والدين :

إن لم تكن من عنصرى فلا نت بال
آداب من أهلى وبالأخلاق

ومودة بين الرجال تضمهم
وتلفهم خير من الأعراف

من ذا نضا عنا شعار جالنا
ورمى هلال سمائنا بمحاق

فلئن خرست عن البيان فطالما
حكت أنى شئت بالإنطاق

ولئن تحملت التراب فطالما
قد كنت محولا على الأعناق

فليمض بعدهك من أحب فقد مضى
منك الحمام بيفيق ووفاق

مالى انتفاع بعد فقدك صاحبا
 حلو المذاقة في الورى بمذاق
 نسجت عليك رياض كل بلاغة
 وسقاك منها ما تشاء الساق
 وعصت على كل الرجال فقدتها
 لرضاك بالأرسان والأرباق ^(١)
 طلبوا مذاك ففتهم وبسبتهم
 ركضا ولم تسمح لهم بلاحق
 والآن بعد اليأس منها أبقوها
 أن البلاغة في يد الرزاق
 وليس قبرك كل منخرق السكلى
 مرعاد كل عشية مرار
 وإذا جفا الترب السحاب فعنده
 ما اخترت من سع ومن إطباقي ^(٢)
 لم يفن دهر من نأى وله بنا
 كلام على مر الزمان بواع
 وإذا مضيت وفيك فضل باهر
 فيمن نسلت فأنت حي باق

(١) الأرسان : جمع رسن وهو القيد والأرباق جمع ربقة وهي الحلقة .

(٢) إطباقي السحاب همومه وشموله .

للمرتضى ديوان شعر يحتوى على عشرين ألف بيت ، وهو معدود في الرعيل الأول من الشعراء الجيدين ؛ ولكن بعضهم يفضل عليه أخاه الرضى في الشعر ، ويفضله عليه في العلم ، ويقول في ذلك : إنه اشتهر عن بعض المظاء أن المرتضى أشعر أهل زمانه لو لم يكن الرضى أخاه ، وأن الرضى أعلم أهل زمانه لو لم يكن المرتضى أخاه .

وبهذا يكون المرتضى كأخيه الرضى من مدرسة أبي تمام التي عملت فاستحسن جوابه وأمر له بجائزه فأعطوه إياها .
وقال في الغزل أيضا :

يبني وبين عوادلى فى الحب أطراف الرماح
أنا خارجي فى الهوى لا حكم إلا للصالح
وما أظرف قوله - أنا خارجي في الهوى - والإمامية من غلاة
الشيعة : وهم والخوارج على طرف نقىض .
وما يذكر في الاستدلال على سرعة بديهته في الشعر أنه جرى
شجار بينه وبين أبي العلاء المعري في قطع يد السارق ، فقال
أبو العلاء :

يد بخمس مثين عسجد ودبـت
ما بالـها قطعت فى ربع دينار
تناقض مالـنا إلا السـكوت له
وأن نـعوذ بـمولانا من النار

فأجابه المرتضى على الفور :
 عز الأمانة أغلاها وأرخصها
 ذل الخيانة فافهم حكمة البارى
 ثم يقال بعد هذا إن البيتين من قصيدة لأبي العلاء في مدح
 المرتضى . وفيها يقول البيتين السابقين :
 يا سانلي عنه لما جئت أسئلته
 ألا هو الرجل العارى عن العار
 لو جئته لرأيت الناس فى رجل
 والدهر فى ساعة والأرض فى دار
 فكيف يكون فى شجار معه فى قطع يد السارق وهو يمدحه
 بذلك ، وكيف يكون البيتان من هذه القصيدة ولا علاقة لها بها ،
 ولستكنه أبو العلاء الذى حمل عليه من الشعر فى الطعن فى دينه
 ما حمل .

وقال فى رثاء جده الحسين بن على بن أبي طالب :
 قف بالديار المقررات لعبت بها أيدى الشتات
 فـ كـأـنـنـ هـشـائـم بـرـورـ هـوـجـ العـاصـفـاتـ⁽¹⁾
 فـإـذـاـ سـأـلـتـ فـلـيـسـ سـاـئـلـ غـيرـ صـامـتـاتـ
 تـعـلـىـ الرـسـومـ الـماـحـلـاتـ عـجـ بـالـطـابـ النـاحـلـاتـ

(1) هشائم جمع هشيمة وهي الشجرة اليابسة ، وهوج العاصفات الرياح الشديدة .

واسأل عن القتلى الأولى
طروحوا على شط الفرات
شعت لهم جم عصبة
ن على أكيف الماشطات
وعهودهن بعيدة
بدهان أمد داهنات
إلى أن يقول :

يا آل أحمد والذى
نجد نجاف ومني
أشهى إلى من الحياة
ومني في نصر م
حتى متى أنتم على
صهوانت حدب شامصات^(١)
وحقوقكم دون البر
ة في أكيف عاصبات
ثم يقول :

قل للا لأنني جادوا وقد
صلوا الطريق عن الهداء
نامت عيون ساهرات
كن عن عيون ساهرات
وطننتم طول المدى
يمحو القلوب عن الترات^(٢)
هيئات إن الضفنة تو
ثيم يختتمها بقوله :

يا صاحبى في يوم عا
شوراء والخدب المواتى
لا تسقنى بالله في

(١) شامصات نافراته .

(٢) الترات جمع ترة وهي الدُّرْ .

وتداومن حزن بقا بك بالمرأى المحنات
لا عطلت تلك الحفا نر من سلام أو صلاة
ففقد طوين شوسنا وبدورنا في المشكلات

وهي نفعة من نفحات المائتية لـ كميت ، وإن دلت على شيء فإنها تدل على أن نفوس المرتضى وغيره من العلوين وشيعتهم كانت مهلوكة على ضعف شديد للعباسيين ومن إليهم ، مع أن العباسيين كانوا في حالة يرثى لها ، وكان اعزازهم للملك خيراً لهم مما كانوا يلقون فيه من مهانات ، والآخرة خير وأبقى من مثل هذه الدنيا .

أبو العلاء المعرى

نسبة وموالده :

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرى التنوخي ، ينتسب إلى
تنوخ من بطولة قضاعة التي نزلت بالشام قبل الإسلام .
وكان مولده بمعرة النعيم سنة ٣٦٣ هـ - ٩٧٣ م

نشأته وسيرته :

نشأ أبو العلاء يبلده في بيت علم وأدب ، فدرس على أبيه علوم
اللسان ثم رحل إلى حلب ليسمع اللغة والأدب على علمائها الذين
شهدوا ابن خالويه ، ثم رحل إلى أنطاكية . وكان فيها مكتبة عربية
نفيسة . حفظ منها كثيرا . ثم سافر إلى طرابلس الشام . ومر في
طريقه إليها باللاذقية . ونزل بدير فيها . فلقي فيها راهبا درس الفلسفة
وعلوم الأسائل . فأخذها عنه . ثم وصل إلى طرابلس . وكان بها
مكتبة كبيرة لآل عمار الحاكمين بها . فانتفع بها كثيرا . ثم عاد إلى
بلده بعد أن بلغ العشرين وأتم الدرس والتحصيل .

كل هذا وهو كفيف قد كف بصره وهو في الثالثة من عمره .
وقد فقد أباه في الرابعة عشرة من عمره . مما يدل على قوة نفسه
وبعد همه . وقد قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة . ولم يتكسب

بـه كـما تـكـسب بـه خـيرـه مـن الشـعـرـاء . لـمـا كـان عـلـيـه مـن عـلـوـ النـفـسـ وـالـأـنـفـةـ مـنـ الـكـذـبـ . وـكـانـ اـنـشـأـتـهـ فـيـ ذـلـكـ الـبـيـتـ الـكـرـيمـ أـثـرـهـ فـيـ ذـلـكـ .

وـلـمـ عـادـ إـلـىـ بـلـدـهـ وـهـوـ فـيـ سـنـ الـعـشـرـينـ أـقـامـ بـهـاـ مـدـةـ مـنـ الزـمـنـ .
ثـمـ رـأـيـ أـنـ يـرـحـلـ رـحـلـةـ أـهـمـ مـنـ رـحـلـاتـهـ السـابـقـةـ . فـقـصـدـ بـغـدـادـ قـاعـدـةـ
الـدـوـلـةـ . وـمـوـطـنـ الـأـدـبـ وـالـفـلـسـفـةـ . فـأـقـبـلـ عـلـيـهـ أـهـلـهـ . وـاشـتـرـكـ فـيـ
أـنـدـيـهـاـ الـعـلـمـيـةـ وـالـأـدـيـةـ وـالـفـلـسـفـيـةـ . وـانـصـلـ بـأـدـيـبـهـ الشـرـيفـ الـمـرـتضـيـ
صـاحـبـ الـأـمـالـ الـمـشـهـورـةـ . وـبـأـخـيـهـ الشـرـيفـ الرـضـيـ الشـاعـرـ الـمـعـرـوفـ .
فـقـامـتـ لـهـ فـيـهاـ شـهـرـ نـفـسـهـ عـلـيـهـ عـلـمـاـوـهـاـ وـأـدـبـاـوـهـاـ . ثـمـ انـقـطـعـ مـاـ يـدـنـهـ
وـبـيـنـ الـمـرـتضـيـ بـسـبـبـ تـعـصـبـهـ عـلـىـ الـمـتـبـنيـ . وـتـعـصـبـ أـبـيـ الـعـلـاءـ لـهـ .
فـتـرـكـ بـغـدـادـ إـلـىـ بـلـدـهـ آـسـفـاـ . وـلـزـمـ بـيـتـهـ فـيـهاـ إـلـىـ آـخـرـ حـيـاتـهـ . مـؤـثرـاـ
الـعـزلـةـ عـلـىـ الـخـلـاطـةـ . وـسـيـ نـفـسـهـ رـهـيـنـ الـمـحبـسـينـ - الـعـمـيـ وـالـمـزـلـ -
وـلـكـنـ عـلـمـهـ وـأـدـبـهـ دـفـعـاـ إـلـيـهـ طـلـابـ الـعـلـمـ وـالـأـدـبـ . فـوـفـدـ عـلـيـهـ الـطـلـابـ
وـالـأـدـبـاءـ وـالـرـوـاـةـ وـالـمـتـفـلـسـفـةـ . وـاشـتـغلـ مـعـهـمـ بـالـتـدـرـيـسـ وـالـتـأـلـيـفـ
وـقـرـضـ الـشـعـرـ . إـلـىـ أـنـ تـوـقـيـتـهـ سـنـةـ ٤٤٩ـ هـ : ١٠٥٧ـ مـ .

منـزـلـتـهـ فـيـ الشـعـرـ وـالـنـثـرـ :

أـبـوـ الـعـلـاءـ مـنـ مـدـرـسـةـ أـبـيـ تـمـامـ فـيـ إـيـشـارـهـ لـفـخـامـةـ الـلـفـظـ وـدـقـةـ الـمـعـنـىـ .
وـلـكـنـهـ يـمـتـازـ عـلـىـ شـعـرـاءـ هـذـهـ الـمـدـرـسـةـ بـتـأـدـيـتـهـ لـرـسـالـةـ الشـعـرـ فـيـ عـصـرـهـ .
إـذـ فـتـحـ فـيـهـ فـيـحـاـ جـدـيـداـ بـالـكـلـامـ عـلـىـ الطـبـائـعـ . وـوـسـائـلـ الـاجـتمـاعـ .
وـعـادـاتـ النـاسـ وـأـخـلـاقـهـمـ . وـنـظـامـ الـدـوـلـ وـالـقـوـانـينـ وـالـشـرـائـعـ .

والأديان . ولم يُعرف هذا الشاعر عربي قبله . وبه يستحق الزعامة على شعراء هذه المدرسة .

ومع هذا شارك شعراء عصره فيما انفردوا به . ولم يقصر عنهم فيما تناولوه من أبواب الشعر من مدح ورثاء وما إلىهما . وشعره في المدائح والمراثي وبقية أغراض الشعر أرق من شعره في النقد والفلسفة . فان ما قاله من هذا الشعر كان بعد رجوعه من بغداد وحبسه نفسه في بيته . فالالتزام في سيرته وشعره ونثره أشياء لم يتلزم بها من قبل . وذلك حين راض نفسه على تكاليف المشقة واحتلال المكروره . وقد ضمن شعره من هذا القبيل ديوانه الذي سماه لزوم ملا يلزم . إذا التزم في القافية الشعرية أن تكون على حرفين . مع أنه لو أسقط أحد هما لما كان متتجاوزاً قواعد القافية . وقد سبق كثير صاحب عزة إلى مثل هذا في تأثيته التي مطلعها :

قولو صيڪما ثم ابکيا چيٽ حلٽ^(۱)

فاضطر ذلك الصنع أبا العلاء إلى المبالغة في استعمال الغريب . ليقوم له بما يحتاج من القافية . حتى حبس أفكاره . وأنهك معانيه . خاءات ألفاظه غريبة . وأساليبه معقدة .

وقد يكون مع ذلك السبب الذى أجهأ إلى سلوك ذلك الأسلوب فى شعره من هذا النوع سبب آخر كان له أثره فى الفلسفه قبله . إذ تعمدوا تعصي نظرهم فى الفلسفه . حتى لا يفهمه من يؤلب الناس

(١) قلوصيكما تتنية قلوص وهي الناقه الشابة .

عليهم من الفقهاء ومن إليهم . فلنجأ أبو العلاء مثلهم إلى تعمية شعره بتلك الالتزامات حينما سلكت به طريق الفلسفة . واستخدم الشعر فيها كما استخدم الناس فيها قبله . وبقيقة ضيقنا الانصاف بعد هذا ألا نحسب ذلك عليه . لأنه أراده عن عمد وهذا الفرض . واعتذر في مقدمة ديوانه مما عسى أن يقع فيه مما لا يوافق أساليب الشعراء .

وله ديوان آخر سماه سقط الزند ، ضمته شعره قبل أن يصير بنفسه هذا المصير ، ويشتمل على شعره في المدح والفحشر والوصف والرثاء وغير هذا من أغراض الشعر .

أما نثره فقد كتب بعضه أيضا قبل عزله ، وكتب بعضه الآخر بعدها وكان حاله فيما كحال شعره أيضا تعمية وإشاراً للفظ الغريب والسبع الثقيل ليقيم من كل هذا أسوارا تحجب أغراضه عنمن ليس من أهلها وأهم ما كتبه في النثر : رسالة الغفران ، وقد كتبها بعد عزله ويقال إن دانتي الكاتب الإيطالي تأثر بها في جحيمه (١) وتتلخص في أن شخصا تخيلي سماه علي بن القارح . قام من قبره يوم البعث . فلبت في الموقف طويلا حتى أعياه الحر والظماء . ففك في أن يخدع سدنة الجنة بما كان يخدع به الناس في الدنيا من الشعر . فأنشأ القصائد في مدح رضوان فلم يفهم منها شيئا لأنه لا يتكلم العربية . ومضى في هذا النوع من الخيال والكلام قبل دخوله الجنة وبعدئه إلى نهاية رسالته . ولا شك أن هذا النوع من الخيال الذي فيه خداع

(١) رواية له سماها الجحيم على نسق رسالة الغفران .

سدة الجنة وما إلى ذلك لم يكن مأولفا إلى عصر أبي العلاء فكان وقعه شديدا على بعض الناس .

وإذا أردنا أن نرجع هذا النحو الجديد الذي نحاه أبو العلاء في شعره ونثراه إلى أسبابه وعوامله وجدناه يرجع إلى هذه الأسباب :

١ - تربيته التي ضم فيها إلى درس اللغة والأدب علوم الأولئ وشراطهم وديانتهم . فامكنته أن يخوض بشعره في أمرها ويسلك به مسلك النقد الذي اكتسبه من دراسة الفلسفة والمنطق .

٢ - فساد عصره ديناً وسياسة وأخلاقاً وعادات . فقد أدرك أضمحلال الدولة العباسية . وانقسام المسلمين انقساماً شنيعاً لم يبق لهم معه من الإسلام إلا اسمه ورسمه فهياً له هذا مادة ذلك الشعر الذي شرح فيه ذلك الفساد الديني والأخلاقي والمسيحي .

٣ - ما لقيه من عنف الناس وسوء عشرتهم . ومن تواري المحن عليه من فقد بصره في صغره وموت أبيه في شبيبتة وأشباء ذلك .

عقيدته الدينية :

ومثل هذا لم يكن من المتظر بعده إلا أن ينتمي أبو العلاء في عقيدته ، لأنها هاجم زمانه في عاداتهم وأخلاقهم ونفاقهم في دينهم بما جاء من ذلك في شعره ونثره وجرى فيه على نحو من المبالغ والتفكير لم يكن مأولفاً قبله . وضم إلى ذلك أنه بعد عزلته حرم على نفسه لحم الحيوان وما يخرج منه . وأكتفى بالنبات والفاكهـة

والدبس(١) وعاش عزباً إلى أن مات . وأوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبي على وما جنبت على أحد

واجتناب أكل الحيوان وما يخرج منه عقيدة دينية يزاحاها براهمة
المهند فرمي أبو العلاء من أجل ذلك كله بالإلحاد . وقد يكون
أبو العلاء ملحداً في نفسه . وهذا أمر بينه وبين الله . ولكن ذلك
كله لا يؤخذ منه إلحاده لأنَّه ما كان منه في رسالة الففران من نحو
ما سبق ليس إلا خيالاً ودعابةً أديب . ومثل هذا يؤخذ به الشخص
في نفسه لا في عقيدته فيكون به آثماً مثلاً لاماً ملحداً . وكذلك عزلته
عن الناس . وخر وجهه على جماعتهم . وطعنه في دينهم وأخلاقهم
وعاداتهم . لأنَّهم كانوا يستحقون منه لما صاروا إليه من الفساد
الديني والخلقي الذي انتشر فيهم . وجعلهم مسلمين اسمًا لا فعلاً .

وذلك ما كان من تحريره أكل الحيوان على نفسه . لأنَّه كان
يرجع إلى زهد أو نحوه . ولم يكن يقصد به خروجاً على دينه . أو
تأثيراً بعقيدة هندية أو غيرها : ومثل هذا إذا أخذ عليه فإنه
لا يصل إلى الطعن في عقيدته . لأنَّه أقرب إلى أن يكون تشديداً
لا انحصاراً .

وكذلك ما ينسب إليه من أشعار كثيرة لو صحت ثبتت ما يرمي
به من الإلحاد . كهذين البيتين :
دين وكفر وأنباء تقص وقرآن

ن بنس وتوارة وإنجيل

(١) هو ما يعقد بالنار من عصير العنبر والخرنوب ونحوهما .

فِي كُلِّ جَيْلٍ أَبَاطِيلٍ مَلْفَقَةٌ

فِهِ لِنَفْرَدٍ يَوْمًا بِالْمَهْدِيِّ جَيْلٍ

لأن مثل هذا الشعر مدسوس عليه في شعره نكبة به من حсадه .
ومن هاجهم في نفاقهم الديني وفسادهم الخلقي . وكان من السهل
دس الشعر على الشاعر في هذا العصر الذي لم يكن فيه مطابع ولا
غيرها مما يتقي به الآن مثل هذا الدس لأنه لو صاح هذا عنه لنفذ فيه
حكم الردة كما نفذ في كل زنديق إلى عصره . وكذلك بعد عصره
إلى عصرنا الحديث . إذ أصبح الإلحاد فيه مباحا . ومع هذا يجد من
يمجاهر به من مقاومة الناس ما يضطر معه أن يخفيه . فكيف يمجاهر
أبو العلاء بمثل ذلك في عصره ولا يخشى أهله ، على أنه يكفي في عدم
صحته أنه عاش بين تلاميذ من خيار المسلمين . تم مات فرثاه على
قبره نحو سبعين شاعرا يثنون عليه . وينوهون بعلمه وأدبه وفضله .

مختارات من شعره :

قال في الفخر من ديوانه : سقط الزند :

الا في سبيل الجد ما أنا قادر

عفاف وإقدام وحزم ونائل (١)

أعندي وقد مارست كل خفية

يصدق واس أو يخيب سائل

تعد ذنبي عند قوم كثيرة

ولا ذنب لي إلا العلا والفضائل

(١) نائل عطاء .

كأنني إذا طلت الزمان وأهله
 رجعت وعندى للأنام طوائل^(١)
 وقد سار ذكرى في البلاد فمن لم
 ياخفاء شمس ضوءها متكملا
 بهم الليلى بعض ما أنا مضر
 ويشغل رضوى دون ما أنا حامل^(٢)
 وإن وإن كنت الأخيرة زمانه
 لآن بما لم تستطعه الأوائل
 وإن جواد لم يحل لجامه
 ونصل يمان أغفلته الصوائل^(٣)
 فإن كان في لبس الفتى شرف له
 فما السيف إلا غمده والحمائل
 ولمنطق لم يرض لي كنه منزل
 على أننى بين السماكين نازل^(٤)
 لدى موطن بشتاقه كل سيد
 ويقصر عن إدراكه المتناول

(١) طلت طاولت وغالبت ، طوائل جمع طائل وهو الفضل .

(٢) رضوى : جبل .

(٣) النصل : السيف ، والصوائل جمع صائل من صقل السيف جلاء وملسه .
يعنى أنه كريم على أصله .

(٤) السماكين نجمان .

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا
 تجاهلت حتى ظن أنى جاهمل
 فوا عجباً كم يدعى الفضل ناقص
 ووا أسفنا كم يظهر النقص فاضل
 وكيف تنام الطير في وكناتها
 وقد نصب للفرقدان الخبائل^(١)
 إذا وصف الطائني بالبخل مادر
 وعير قسا بالفهادة باقل^(٢)
 وقال السهى للشمس أنت ضئيلة
 وقال الدجى للصبيح لونك حائل^(٣)
 وطاولت الأرض السماء سفاهة
 وفاخرت الشعب الحصى والجنادل
 فيما موت زر إن الحياة ذمية
 وبما نفس جدى إن دهرك هازل
 وهذا بدل على علو نفس لأنظير له في عصره ، وعلى شکوى صورة
 من هذا العصر وقال في رثاء وهو غاية ما وصل إليه الشعر العربي في
 هذا الباب :
 غير مجد في ملقي واعتقادي نوح باك ولا ترم شادي

(١) الفرقدان : نجمان .

(٢) الطائني : حاتم .

(٣) السهى : كوكب خفي من بنات نعش .

س بصمات البشير في كل ناد
ـب فـأين القبور من عهد غاد
أرض إلا من هذه الأجساد
ـد هوان الآباء والأجداد
لا اختيالا على رفات العياد
ضاحك من تزاحم الأقصداد
ـف طويل الأزمان والآباد
ـجب إلا من راغب في ازدياد
ـف سرور في ساعة الميلاد
ـمة يحسبونهم للنفساد (١)
ـل إلى دار شقة أو رشاد

س فداع إلى ضلال وهادى
حيوان مستحدث من جماد
مر يكون مصيره للفساد

بان أمر الإله و اختلف النا
والذى حارت البرية فيه
فاللبيب الليب من ليس يفتق

ومن شعره في ذم الحياة السياسية في عصره :

مل المقام فكم أعاشر أمة

أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجذروا كيدها

فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

(١) يعني بقاء أرواحهم بعد أجسادهم لحساب الآخرة كما جاء في البيت بعده .

فالحاكم عنده أجيلاً لا مالك يتصرف في رعيته تصرف الملاك ، وهذا أمر جاء به الدين قبل أبي العلاء ، ولكن الشعر العربي لم يجئ به قبله ومنه في ذم الحياة المدنية :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء^(١)
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويسربها على عمد مساء^(٢)
يقول لكم : عدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكسae
إذا فعل الفق ما عنه ينهى فلن جهتين لا جهة أساء
وقال في الرد على الباطنية القائلين بالإمام المنتظر :

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتبية المحسأة^(٣)
كذب الظن لا إمام سوى العقة مل مشيرا في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والإراساء

وقال في قدم الزمان وعدم تناهى المكان كما تذهب الفلسفه :

ومولد هدى الشيس . أعياك حده وخبر لب أنه متقادم^(٤)
وأيسر كون تنته كل عالم ولا تدرك الأكون جرد صلام^(٥)

(١) رويدك : مهلاً .

(٢) الصهباء : الحر .

(٣) الكتبية : الفرقة من الجيش .

(٤) لب : عقل .

(٥) جرد صلام : خبل شديدة أحافر .

إذا هي صرت لم تعد وراءها
 نظائر والأوقات ماضٍ وقادمٌ
 فما آل منها بعد ما غاب غائبٌ
 ولا بعدم الخين المجدد عادمٌ
 وقال أيضاً في هذا النحو من الشعر الفلسفي :
 أستحي من شمس النهار ومن
 قمر الدجى ونجومه الزهر
 يبحرين في الفلك المدار باذ
 ن الله لا يخشين من بسر^(١)
 ولمن بالتعظيم في خلدي
 أولى وأجدر منبني فهر^(٢)
 سبحان خالقين لست أقوى
 ل الشهب كافية مع الدهر^(٣)
 لا بل أفكّر هل رزقني حجي نجها يعنّي به من الطهر^(٤)
 أم هل لأنّتها الحصان بذى التذكرة كير من قربى ومن صهر^(٥)
 وهو في هذا يشك فيها يذكر الفلسفه من أن الكواكب حسا
 وعقلاء . وفيما ورد في الأساطير من أنها تتصاهر وتزاوج :

(١) الهر: اقطاع النفس من الاعباء .

(٢) فهر: قريش .

(٣) كافية: يقال رجل كاف ينتدب للخير فلا ينتدب .

(٤) حجي: عقلاء ، يعنّي: ينتقلن .

(٥) الحصان الظاهر المفيفة .

وكان بسيء الظن بالمرأة وينهى عن تعليمها ، كما قال :

علموهن النسيج والغزل والرد

ن وخلوا كتابة وقراءة^(١)

فصلة الفتاة بالحمد والإذ

للاص تجزى عن يوتس وبراءة^(٢)

وهذا جمود لا يليق بما دعا إليه من إصلاح في غيره ونسبة
إليه شعر كثير في تحريم لحم الحيوان أشك في صحته ، لما قدمت
من أنه امتنع عنه لسبب خاص به . ولم يشار كله في أحد من
المختلفين حوله من تلامذته وغيرهم ، ولو دعاهم إليه بمثل هذا الشعر
يشار كله على الأقل فيه قليل منهم ، ومما نسب إليه في ذلك :

غدوت صريض العقل والدين فالقني

لتسمع أبناء الأمور الصحاائح

فلا تأكلن ما أخرج البحر ظالما

ولا تبغ قوتا من غريب الذبائح^(٣)

ولا يضر أمات أرادت صريحه

لأطفالها دون الغوانى الصرائح^(٤)

ولا تفجعن الطير وهي غوافل

بما وضعت فالظلم شر القبائح

(١) الردن: الغزل أيضاً أو ضرب منه.

(٢) يعني سورة يوتس وسورة براءة .

(٣) غريب : طرى .

(٤) الغوانى: الحسان من النساء .

مساحت يدى من كل هذا فليتنى
أبهر لشأنى قبل شب المسائى^(١)

فطلع هذا الشعر مما لا يحتمله عصر أبي العلاء ، وكذلك ما ورد بعده من الشعر لا يمكن أن يظهر في زمن أبي العلاء منسوباً إليه ، وقد ظهرت فيه رسائل إخوان الصفا في علوم الفلسفة وليس فيها مثله ، ومع ذلك لم يمكن أن يظهر معها أصحابها ، حتى اضطرب الناس بهذا في أمرهم إلى عصرنا .

موازنة بين أبي العلاء والمتبنى :

ويحسن في ختام الكلام على أبي العلاء إيراد هذه الموازنة بينه وبين المتبنى ، لأن كلاً منها كان شاعراً حكيناً عفيف اللفظ لا يعرض للفحش ولا للخنا ، وإن كان المتبنى نسيب جميل وشيء من الهجاء المقدع دون أبي العلاء ، وكان المتبنى لا يغيب باللغة والقياس لثقته بنفسه ، وتبعه أبو العلاء في هذا أول أمره ثم عدل عنه ، لقوله في بعض شعره — فهذا لا أخون ولا أخان — فاستعمل هذان من غير اسم الإشارة ، مع أن ها التنبيه لا تدخل على الضمير إلا معها ، فيقال هذان ويمكن إجمال ما بينهما من الفروق فيما يأتى :

(١) شفر المتبنى واضح اللفظ ناصع الأسلوب بخلاف أبي العلاء .

(٢) أبو العلاء حكيم دارس استنزل الفلسفة من منزلتها .

(١) المسائى: جمع مسيحة وهي شعر جانبي الرأس .

العلمية المقصورة على الكتب إلى حيث تسلك طريق الشعر إلى القلوب . بلا فرق بين ما كان منها في الأخلاق . وما كان في الطبيعة والرياضية والألوهية . والمنبي تكلف الحكمة ولم يتتجاوز بشعره ما تعلق منها بالأخلاق .

(٣) المنبي حب للدنيا متكسب بشعره بخلاف أبي العلاء . وبهذا ينتهي ما كتبته في هذا العصر . وكانت أود أن أصل بالكتاب فيه إلى ما وصلت إليه في المصور قبله . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

وهذا بحثان أدبيان ألحقتهما بهذا الكتاب ليزيدا شيئاً في عدد صفحاته :

- (١) الفرسان الشعراء في الجاهلية والاسلام .
- (٢) قصة سعد وسعاد .
إلى بحوث أخرى أدبية .

ملحق بالكتاب

الفرسان الشعراة في الجاهلية والإسلام :

لم يكن للعرب في الجاهلية دولة تفرض حكمها عليهم . وبهاب سلطانها أفرادهم وقبائلهم . ويختبئ بها الضعيف من القوي . ويلجأ إليها فيأخذ حقه منه عند اعتدائه عليه . نعم كان لهم دولة المغاذرة بالعراق ودولة الفسasseنة بالشام . ولكن حكمها لم يمتد إلى قلب البلاد العربية . ولم يصل إلى البادية الكبرى التي كانت قبائل العرب تعيش فيها طليقة من كل قيد تتقيده به من حكم أو دين . وهذا إلى أن كلا من الدولتين كانتا متعدديتين بسبب وقوع دولة المغاذرة في نفوذ دولة الفرس ، ووقوع دولة الفسasseنة في نفوذ دولة الروم ، وما أدى إليه هذا من وقوع الحروب بين الدولتين ، واشتباكاً كما فيما وقع من الحروب بين قواتي الفرس والروم ، وانقسام العرب على أنفسهم في مناصرة الدولتين ، واضطرباب حبل الأمن في بلادهم بسبب هذه الحروب التي لم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل ، وإنما كانت مصلحتهم أن يقفوا موقف الحياد بين الدولتين الطامعتين في حكم بلاد العالم المتنافستين في هذا الطمع كما تتنافس الدولة الكبرى الاستعمارية في عصرنا ، وأن يعملوا على تقوية نفوذهن بالاتحاد والأخذ بأسباب التهوض ، حتى لا يقعوا فريسة لإحدى الدولتين

المتنافستين ، ولا يكولوا بانقسامهم على انفسهم سببا في نكبة بلادهم
بالحكم الأجنبي .

ولتكن العرب في جاهليتهم لم يعرفوا فائدة وقوفهم موقف
الحياد بين الدولتين ولا فائدة اتحادهم وعملهم على تقوية تفوقهم
بازاء طمع الدولتين في الاستيلاء على بلادهم ، حتى انقسموا فيما
بينهم انقساما شنيعا في حواضرهم وبواديهم ، وصار أمرهم إلى فوضى
شاملة ، يعرفون فيها ما بينهم من رابطة الجنس ، ومن رابطة الوطن
ومن رابطة اللغة ، وحتى صار في هذا الانقسام الشنيع أقوى دولة
عربيه بينهم ، وهي الدولة الحميرية التي كانت هي الدولة العربية الوحيدة
التي لا تخضع لحكم أجنبي ، فاستوأت عليها دولة الحبشة بتهاجمها
دولة الروم ، لما كان بينهما من الاتحاد في الدين ، كان هذا سببا
في لجوء أمير حميري - سيف بن ذي يزن - إلى دولة الفرس لإنقاذ
بلاده من دولة الحبشة ، فلما جاء إليها ساعدته على استرداد بلاده ،
ولشكرا لها لم تسترد لها له إلا لتفرض حكمها عليه ، ثم تولى عليها بعده
ولاة من الفرس .

وبهذا وقعت البلاد العربية الجنوبيّة في الحكم الأجنبي الفارسي
كما وقعت البلاد العربية الشماليّة في الحكم الأجنبي الروسي ، ولم
يبق للعرب إلا بواديهم القاحلة في نجد والمحجاز ، تتنازعها قبائلها في
قطط وفقر ، وتتطرأحن فيها على لقمة العيش ؛ فلا يكون أكبرو سيلة
للعيش فيها إلا الاعتماد على السلب والنهب ، يجعله ما هم فيه من جهل
وفقر عملاً مشرعاً ، ويغريهم عليه ما هم فيه من فوضى ليس فيها سلطان

رادع، ولا دين وازع، وإنما كان السلطان فيها لقوة الفرد، ولقوة القبيلة، فيتعدى القوى على الضعف، ويستحيل ما ينبهه منه بشرع القوة، بل يعده مفخرة من المفاخرة، ويتعين به في أشعاره، ثم يشيع هذا بينهم، فينافس بعضهم ببعضه فيه، وتصير الفروسيّة وأصحابها من أقوى مظاهره، بل تصير المثل الأعلى لنبيل الشّرفة، وكسب الجد، وبصیر ما تعتمد عليه من الصلب والنہب مفخرة المفاخرة إذا كان صاحبها فارساً كریماً يبذل ما يسلبه وینبهه لمن يقصده من طلاب العطاء، فلا يدخل بشیء منه عليهم حق لا يبقى منه شيئاً، ولا يجد إلا أن يعود إلى شن الغارة، ليكسب لطلاب العطاء منه ما يرتفع من شأنه بينهم، حتى يصير مقصد الزوار من كل جانب وبصیر بينه ملجاً لـكل قاصد، ويضطر إلى مواصلة الغارات ليرضى هؤلاء الطامعين في سفهه وتبذيره.

وكان قريش هي القبيلة الوحيدة التي تعتمد على التجارة في رحلتها المعروفتين بين القبائل العربية. فلم يرض هذا شاعرها عبد الله بن الزبير. وقال في ذمه:

ألهى قريشا عن الجد الأساطير
ورشوة كما ترشى السفافير^(١)
وأكلها اللحم بحثاً لاخليط له
وقولها رحلت غير أنت عير

وكان الفرسان الشعرا في الجاهلية أظهر فرسان العرب. وكان بعضهم من طبقة الأشراف من أبناء رؤساء القبائل ونحوهم. وبعضهم من طبقة سوق الناس. وهؤلاء كانوا يسمون الصهاليك. جمع

(١) السفافير : السمايرة.

صلوک وهو في اللغة الفقير . ولعل هذا الاسم لم يكن محبوباً في الجاهلية . ولكن الفرسان الشعراء من الصعاليلك رفعوا منه في أشعارهم . وأعلوا من قيمته بينهم لأنهم كانوا يغرون على القبائل في جمعون المال الكثير ثم يغرونهم على من يلوذ به حتى لا يبقى شيء منه بأيديهم . ليشارا لما ألفوه من عيشة الصعلكة . وحباقي مفارقات الغزو والنهب . ليتحدث الناس بشجاعتهم وبطولتهم . وبما كان لهم من آداب ومحاذير في صعلكتهم . وقد أشار شاعرهم إلى بعضهم في قوله :

وله صعلوك يساوره
ويضي على الأحداث والدهر مقدما
فتي طلبات لا يرى الخمس ترحة
ولا شيعة إن ناهما عد مغنا
إذا ما رأى يوما مكارم أعرضت
يتتم كبراهن ثمت صمما
برى رمحه ونبله ومجنه
وذا بشطب عصب الضريبة خدمها (١)
وأحناء سرج فاتر ولجامه
عند أخرى هيجا وطرفا مسوما (٢)

(١) خدمها : قاطعاً.

(٢) فاتر : يقال ذئب الشيء ضم بعضه إلى بعض ، والأمر لازمه ، والطرف : الفرس الكبير .

فذلكم إن بهلك فخني نهائه
وأن عاش لم يقدر ضعيفاً مذماً

ومن أشهر الفرسان الشعراء من الصعايليك عروة بن الورد العبسي
وكان يلقب عروة الصعايليك : لأنك كان يجمعهم ويقوم بأمرهم
إذا أخفقوا في غزوتهم . ولم يكن لهم معاش ولا مغزى . وكان
الناس إذا أصابتهم سنة شديدة ترکوا في دارهم المريض والكبير
والضعيف . فكان عروة يجمع أشباء هؤلاء من دون الناس من
عشيرته في الشدة . ثم يحرفهم الأسراب . ويكتنف عليهم الكتف
ويكسهم . ومن قوى منهم : إما مريض يبدأ من مرضه . أو ضعيف
تثوب قوته . خرج به معه فأغار على القبائل . وجعل لأصحابه
الباقي في ذلك تصيباً . حتى إذا أخذ الناس وألبنوا وذهبوا
السنة أحق كل لِّيَسَان بآهله . وقسم له تصييبه من غنيمة إن كانوا
غنمواها . فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى .

وما قاله عروة في أدب الصعايليك :

لَهُ اللَّهُ صَلَوَاتُكَ إِذْ أَجْنَ لِيَهُ
مَضِيَ فِي الْمَشَاشِ آلَفَا كُلَّ مَجْزَرٍ^(۱)

بعد الغنى من دهره كل ليـلة
أصاب قراها من صديق ميسـر
ولله صـلـوـكـ صـفـيـحةـ وجـهـ
كـضـبـوـهـ شـهـابـ القـابـسـ المـتـنـورـ^(۲)

(۱) المشاش: رأس الظماليين .

(۲) القابس: مشعل النار .

وقد أعلى هذا من شأن عروة عند العرب في الجاهلية ، وكذلك في الإسلام حين صاروا فيه إلى الاعتزاز بجاهليتهم ، وما كان يعدها من مفاحيرهم ، حتى قال عبد الملك بن مروان فيه : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . وقال أيضاً : ما يسرني أن أحداً من العرب من ولدني لم يلدني إلا عروة بن الورد ، لقوله :

ولاني امرؤ عافى إنانئ شركه

وأنت امرؤ عافى إنانئك واحد^(١)

أتهزاً مني أن سنت وأن ترى

بحسبي شحوب الحق والحق جاحد

أفرق جسمى في جسوم كثيرة

وأحسو قراح الماء والماء بارد

وكذلك كان رأى أبي جعفر المنصور في عروة بن الورد ، وهو

في بني العباس يشبه عبد الملك بن مروان في بني أمية ، فكان معجباً

به وبأخياره في التلصص والصلعة ، وليس هذا بكثير على أمثالها

من جباررة الملوك في الإسلام ، ومن أخذ الحكم فيه بقوة السيف ،

كما كان عروة يعتمد في معيشته على هذه القوة ، وينهب بها مال الناس

نهياً ، فهذا نهب للمال ، وذاك نهب للحكم ، وكلها مما لا يحيزه

الإسلام .

وكان عروة ينزل على يهود بني النضير بجوار يثرب - اسم المدينة

قبل الإسلام - فيمكت بينهم ما يمكت ، ويبذر ما ينهبه من القبائل

فيها أقاموه هناك من حانات الخمر ودور الدعارة ، وكانوا يفرضونه

(١) العاف : الطالب .

برباهم الفاحش إذا احتاج ، ويبايعهم ما ينهيه إذا غنم ، فيأخذون ما يفرضونه له بالربا الفاحش أضعافاً مضاعفة مما ينهيه ، ويعدون له ولأمثاله من المخربين في العرب حبل للفساد ، يصلوا إلى أغراضهم في نشر الفقر والجهل وما إليهما في بلاد العرب ، ويمكنهم الاستمرار في استغلال أهلها ونهب أموالهم بالربا الفاحش وغيره ، ولم يكن يعلم إلا الله ما يكون مصيرها بين أبناءها المخربين وأولئك اليهود الجشعين لو لم يتداركها بالإسلام الذي انتشلها من ذلك الجهل والفساد وقضى على ذلك التحريب والنهب من فرسانها الصالحين واليهود والطامعين .

ولم يكن عروة ينهب المال وحده من القبائل ، بل كان ينهب النساء أيضاً ، فيسلبهن حريةهن وبيعهن في سوق الرقيق ، وقد يختار الجميلة لنفسه فيتذذها أمة ، وبضميتها إلى نساءه الأحرار والإماء ، كما نهب مرة امرأة من كنانة يقال لها سلمى حين أغار على قومها ، فأعتقها واتخذها لنفسه ، فكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ، وكان يعتقد أنها أرغبت نساءه فيه ، لأنها كانت معجبة بشجاعته ، ولكنها كانت تضرر أهلاً في نفسها لحريتها التي فقدتها ، لأنها لم تخرج بعتقه لها عن كونها مولاً لآخرة أصيلة ، وكانت ضرائرها ينظرن إليها باحتقار من أجل ذلك ، فيشنن في نفسها من الألم ما تفضل معه أن تسترد حريتها في قومها على عروة وأولادها منه .

فأرادت أن تختال عليه لتلحق بقومها وتسترد حريتها ، فقالت له : لو حججت فأصر على أهلي وأراهم . فحج بها إلى مكة ، ثم قصد

يترى ليمر على يهود بني النضير ، وكان مخالطا لهم كما سبق ، وكان أهلها يخاططونهم أيضا ، لأنهم تمكنوا بدهائهم وترائهم من بسط سلطانهم الاقتصادي على جميع العرب ، فالتقت سلسي بقومها عندهم ، فقالت لهم : إن عروة خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام ، فتعالوا إلينه وأخبروه أنكم تستحييون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحبيته سبية ، وافتذوني منه ، فإنه لا يرى أن في أفارقه ولا اختار عليه أحدا .

فأتوا عروة فسقوه من شراب أولئك اليهود حتى نُمل ، فلما نُمل قالوا له : فادنا بصاحبتنا ، فإنها وسيلة النسب فيما معروفة ، وإن علينا سبة أن تكون سبية ، فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها فاخطبها إلينا ، فإننا ننكحك .

قال لهم عروة : ذاك لكم ، ولكن لي الشرط فيها أن تخبروها ، فإن اختارتني انطلقت معى إلى ولدتها ، وإن اختارتكم انطلقتم بها فلما فادوه بها خيروها بينهم وبينه فاختارتهم ، ثم أقبلت عليه فقالت له : يا عروة ، أما إني أقول فيك وإن فارقتك الحق ، والله ما أعلم امرأة من العرب ألت سترها على بعل خير منك ، وأغضض طرفا ، وأقل خشا ، وأجود يدا ، وأجمى لحقيقة ، وما من على يوم مذ كنت عندك إلا الموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ، لأنني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول - قالت أمّة عروة كذا وكذا - إلا سمعته ، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبدا (١) فارجع راشدا إلى ولدك وأحسن إليهم .

(١) نسبة إلى غطفان وكان بنو عبس منهم .

ويروى أيضاً أنه سبى امرأة من بنى عامر يقال لها ليلى بنت شعواد
فكثت عنده زماناً وهي تربى أنها تحبه ، ثم استزارته أهلها ، فلما أراد
الرجوع أبى أن ترجع معه ، وتوعده قومها بالقتل ، فانصرف
عنهم وأقبل عليها فقال لها : يا ليلى ، خبرى صواحبك عنى كيف أنا
فقالت له : ما أرى لك عقلاً ، أتراني قد اخترت عليك وتقول خبرى
عنى . فقال في ذلك :

تحن إلى ليلى بجو بلادها
وأنت عليها بالملا كنت أقدرا
وكيف ترجيها وقد حيل دونها
وقد جاوزت حيا بتيماء منكرا

وكان بنو عامر قد أخذوا امرأة من بنى عبس يقال لها أسماء
بدل ليلى ، فلم تلبث عندهم إلا يوماً حتى استنقذها بنو عبس منهم
فبلغ عروة أن عامر بن الطفيلي نفر بأخذه لأسماء ، وكان من فرسان
العرب أيضاً ، فقال يعيرون بأخذه لليلى بنت شعواد :

إن تأخذوا أسماء موقف ساعة
فأخذ ليلى وهي عذراء أعجب
لبسنا زماناً حسنها وشابها
وردت إلى شعواد والرأس أشيب

فهذه كانت حالة فرسان العرب في جاهليتهم ، وهذه كانت مفاخر
الفرسان الشهراة منهم ، كان بعضهم ينهب بعضاً ، وكانوا
لا يتورعون عن نهب النساء مع الأموال ، وكانت هذه العنجهية تنقلب

إلى خضوع معيب لليهود الطامعين فيهم ، لأنهم كانوا يرضون شهواتهم بوسائل اللهو من الخمر وغيرها ليزيدوا في مفاسدهم ، فكانوا يعيشون في هذا الضلال كالبهائم ، بل كانوا أضل سبيلاً وأقبح ضلاماً .

ويمكّنا أن نلخص أصل هؤلاء الفرسان فيما يأتي :

١ — أن حروبهم كانت عدوائية لا يحملهم عليها إلا شهوة القتال ، وإلا المباهاة بالقوة والشجاعة في أشعارهم ، وإلا المفاخرة بنهب المال وهتك أعراض النساء .

٢ — أن حروبهم كانت لأغراض شخصية كما يفعل اللصوص سواء بسواء ، فكان ما يغنمونه لقضاء شهواتهم ولذاتهم ، فإذا أشركوا غيرهم فيه فإنما يشركون مخربين مثلهم ، كما كان يفعل عروة بن الورد مع صداليكه .

٣ — أنهم كانوا أصحاب السلطان في بلاد العرب ، لأنهم كانوا حماة القبائل في تفرقها وتحاربها ، فكانوا يعيشون في الأرض فساداً ، لا يخشون سلطان حكومة تردعهم ، وليس لهم وازع من دين يردهم عن فسادهم .

٤ — أنهم كانوا يجدون إغراء على الفساد من عناصر يهودية تساعدهم باقراض المال بالربا عند حاجتهم ، وتزيد في فسادهم وطغيانهم بما تقدمه لهم من وسائل اللهو الحرام من خمر وغيرها ، إذ كانت في ديارها ندوات للفساد ، من حانات الخمر ، إلى بيوت البغاء ، إلى غير هذا من ضروب الفسق التي كانوا يهافتون عليها تهافت

الفراس على النار ، ليبيعوا ما ينبوهه في غاراتهم بأجنحة الأئمان ، وينفقوا في الخمر ونحوها بأغلى الأئمان ، حتى لا يخرجوا منها بشيء من ثمن ما نبوه ، ويمدوا أيديهم إلى أصحابها من اليهود ليقرضوهم بالربا الفاحش ، ثم يعودوا إلى التهب والسلب تانيا ، ليعودوا إلى تلك الندوات الفاسدة ، ويؤدوا بعض ما عليهم من المدبون ، وينفقوا في الخمر وغيره ما ينفقون ، حتى تراكم ديون اليهود عليهم ، ويصيروا ألعوبة في أيديهم ، يحرر كونهم كما يشاءون ، ويستخدمونهم في قضايا مأربهم في بلاد العرب كما يشتهون .

فلما ظهر الإسلام لم يرض عن هذا الفساد كله ، وعمل على إصلاحه والقضاء على أسبابه ، وكان من أهمها تفرق العرب إلى قبائل مت讧ارة يظهر فيها سلطان أولئك الفرسان ، فعمل على توحيدها ليكون منها أمة واحدة تجتمع على دين واحد ودولة واحدة ، حتى لا يكون هناك سلطان فيها لغير دينها ودولتها ، ولا يكون لها فرسان متمردون كفرسانها في الجاهلية ، بل يكون لها فرسان خاضعون لدينها ودولتها ، عاملون لمصلحة الدين والوطن ، لا لمصالحهم الشخصية .

وكانت هناك بقايا من أولئك الفرسان بعد ظهور الإسلام ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يصلح من نقوصهم ، ويسلك في هذا أدق العلاج النفسي ، ومن ذلك أن أحدهم وفد عليه ، وهو زيد الخيل النبهاني ، وكان فارساً شاعراً ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، تم سماه زيد الخير بدل زيد الخيل ، ليقلع من نفسه ما يغريه به اسمه

القديم ، وينزع منها حب تلك البطولة الشريرة ، و كان أيضاً يؤلف
من أسلم منهم بمال لضعف إسلامهم بما كان من تغاليهم في فسادهم ،
وليعوض به ما أبطله من سبل عيشهم ؟ ثم وجه الشعر توجيهها قوياً
يبعد به عن التباهی بذلك الفساد ، ويكون التباهی فيه بالعمل النافع
في الدنيا والآخرة لمن صبح التباهی به ، لأنه يجب أن يكون لوجه
الله وحده ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في عبد الله بن رواحة
من شعراء الإسلام : « إن أخاك لايقول الرفت؛ وهو ابن رواحة »
وكان مما قاله :

وفيها رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معرف من الفجر ساطع
أرانا المدى بعد العمى فقلو بنا
به موقنات أن ما قال واقع
بيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استقلت بالكافرين المضاجع

ومن لم يردعه منهم هذا العلاج النفسي عالجه بالقوة ، ليخضعه سلطان
الحكومة التي أقامها الإسلام لهم ، حتى لا يكون هناك سلطان إلا
سلطانها ، فيستقر الأمن في البلاد ، وتبطل غارات أولئك الفرسان ،
ويتجه كل واحد إلى الكسب الحلال والعمل النافع .

وقد قامت في الإسلام حروب ولكنها لم تكن كحروب أولئك
الفرسان للسلب ، وللتباهي بها في الشعر ، ولكنها كانت حروب
جيوش منظمة للدفاع عن دعوة الإسلام ، لا انهب المال والعدوان

على الآمنين ، وكان في هذه الجيوش فرسان شعراء وغیر شعراء ، ولكن لم يكن لهم سلطان يعلو على سلطان غيرهم ، بل كانوا خاضعين لسلطان الحكم الإسلامي ، يحاربون بأمره إذا شاء ، ويتبعون بنبيه إذا شاء ، طاعة لاطعيان ، ونظام لافوضى ، وعفة لاخبور ، وأمانة لا خيانة .

وكان لفرسان الشعراء في الإسلام أشعار ، ولكنها كانت أشعاراً كريمة ، لا تقلب فيها الحقائق ، ولا تجعل من الباطل حقاً ولا من الحق باطلًا ، ولا تقصد إلى الشهرة وبعد الصيت وإنما تؤثر إنكار النفس ، وتنطبع إلى حسن الذكر في الدنيا والآخرة .

وكان عبد الله بن رواحة الذي وصف النبي صلى الله عليه وسلم شعره بما سبق من الفرسان الشعراء ، وله موقف كريم في جيش مؤتة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم جعل زيد بن حارثة أميراً على هذا الجيش ، فإذا قتل فالامير جعفر بن أبي طالب ، فإذا قتل فالامير عبد الله بن رواحة ، فلما قتل الأميران أخذ عبد الله اللواء ، وكان جيش الروم يبلغ أضعاف جيش المسلمين ، فلم يجبن عن إلقائهم بعد قتل صاحبيه ، بل تقدم باللواء وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه وبطوعها للقتال ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتزلنـه
لتزلـنـ أو تـكـرـهـهـ

إن أجلـ الناسـ وـشـدواـ الرـهـةـ
ـمـالـيـ أـرـاكـ تـكـرـهـينـ الجـنـةـ(١)

(١) الرهـةـ : صوت فيه ترجـعـ يـشـبهـ البـكـاءـ

قد طالا قد كفت مطشته
هل أنت إلا نطفة في شنفه (١)

ثم قال :

يا نفس إلا تفعلي تسوئي
هذا حمام الموت قد صليت
وما تهنيت فقد أعطيت
إن تفعلي فعلهما هديت (٢)

ثم تقدم فقاتل بجيشه القليل العدد جموع الروم باللفحة أضعافه
حتى قتل في سبيل الله تعالى ، وفي سبيل الذكرى الحسنة في الدنيا
والآخرة .

وليس في هذه الأبيات تفاخر بشجاعة ولا مباهاة من مباريات
الفرسان الشعراة في الجاهلية ، وإنما هي نفس لم تطبع على حب القتال
وسفك الدماء ، ولا تقاتل شهوة في القتال وسفك الدماء ، وإنما
تكره على القتال لدفع العدو عن نفسها ، فتقاتل مضطرة ، ولا تقصد
من القتال إلا رضا الله تعالى بالدفاع عن دينه .

وبهذا اختفت تلك الظاهرة الآتية بين الفرسان الشعراة في
الإسلام على عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، فلما قامت دولة بنى
أممية وفرضت حكمها على المسلمين بالقوة ، عادت تلك الظاهرة الآتية
إلى الظهور بين الفرسان الشعراة في الإسلام ، لأن الناس على دين

(١) الشنة : القرية القديمة .

(٢) ضمير فعلهما لزيد وعمر اللذين قتلا قبله .

ملوكهم ، فإذا اعتمد ملوكهم على حكمهم على الفسدة اعتمدوا عليها أيضاً فيما بينهم ، فظهر في أوائل عهد بن أبي أمية بعض من الفرسان الشعراة الذين أعادوا عهد أسلافهم في الجاهلية ، من شن الغارات على القبائل للسلب والنهب ، والافتخار بها والتباكي في أشعارهم ، ومنهم توبة صاحب ليلي الأخيلية .

وهو توبة بن الحمير - بضم الحاء وفتح الميم وتشديد الياء المكسورة - وكان يغیر في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وذكر أبو عبيدة أنه كان شريراً كثيراً لغارة على بنى الحارث بن كعب وختنم وهدان ، فكان يزور نساء منهن يتحدث إليهن ويلهون معهن ، ومن شعره في ذلك :

أيذهب ريعان الشباب ولم أزر
غرائز من همدان ييضاً نحورها

وكان ربما ارتفع إلى بلاد مهرة فيغير عليهم ، وبين بلاد مهرة وبلاط قومه بنى عقيل مفارزة منكرة لا يقطعها الطير ، فيحمل مزاد الماء فيدفن منه على مسيرة كل يوم مزاده ، ثم يغیر عليهم فيطلبونه فيركب بهم المفارزة ، وإنما كان يعتمد حرارة القيظ وشدة الحر ، فإذا ركب المفارزة رجعوا عنه .

وكان توبة يتعشق ليلي الأخيلية ، وهي من قومه بنى عقيل ، فقال فيها الشعر ، وخطبها إلى أبيها فأبى وزوجها لغيره ، فلم ينقطع عن عشقها وزيارتها في غيبة زوجها ، فاعتبره أخوها وأهله فلم يسمع لهم ، فشكوه إلى السلطان فأهدر دمه إن أناهم ، وعلمت ليلي بذلك

وجاهها زوجها وكان غيورا ، خلف : لئن تعلم بمجيئه ليقتلنها ولئن
أندرته بذلك ليقتلنها ، فرصدته في الموضع الذي يجيئها منه ، ورصدوه
بعوض آخر ، فلما أقبل لم تقدر على كلامه لليمين الذي حلقته ،
فسفرت وألقت برقبها عن رأسها ، فلما رأى ذلك أنكره وركب
راحلته ومضى ففاتها . وقال في ذلك قصيده :

نأتك بليلي دارها لا تزورها

وشطت نواها واستمر صريرها^(١)

وهي طويلة يقول فيها :

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت

فقد رانى منها الغداة سفورها

فكان بعد هذا يراسلها وتراسلها ، وقد وجده يوما صاحبا له إلى
حاضرها ، وقال له : إذا أتيت الحاضر من بنى عبادة بن عقيل فاعل
شرفا ثم اهتف بهذا البيت :

عفا الله عنها هل أبین ليلة

من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فلما هتف بذلك عرفت المعنى فقالت له :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله

عزيز علينا حاجة لا يفهمنا

ثم وقعت مثافرة بينه وبين السليم بن ثور بن أبي سمعان بن عاص
ابن عوف بن عقيل ، وكان شريرا ونظيره في القوة والباس ،

(١) استمر صريرها : المرير العزيمة وما شهد قتلها من الجمال ، واستمر اشتده.

فتواعد كل منهما صاحبه ، والتقيا بعد هذا على غدير من ماء السماء ؛
 فرمى توبه السليل فقتله^(١) ثم أغار توبه ثانية على إبل بني السمين
 ابن كعب بن عوف بن عقيل فاطردها . و كان معه أخوه عبد الله
 ورجل يقال له قابض من بني كلاب . ثم سار بالابل إلى عبد العزيز
 ابن زراره من بني كلاب لينزل بها عنده . نخرج ابن عم للسليل بن
 ثور المقتول إلى قومه فركبوا في طلبه فأدركوه قبل أن يصل إلى
 عبد العزيز بن زراره فقتلوه وقطعوا رجل أخيه عبد الله . ففر
 قابض إلى عبد العزيز وقال له : قتل توبه . فنادى في قومه خباءه
 أبوه زراره فقال : أين تزيد ؟ فقال : قتل توبه . فقال له : سحقا
 لك ، أتطلب بدم توبه أن قتلتته بنو عقيل ظالما لها . باغيها عاديا عليها .
 قال : لكنني أجهنه إدفن . قال أبوه : أما هذه فنعم . فانطلق السلاح
 وانطلق حتى أجهنه وحمل أخاه عبد الله إلى قومه .

نعم قتل توبة كما قال زراره ظالما باغيها ، وهي كلمة حق كان
 من الواجب أن تقال في عهد غالب فيه الشر على الخير ، ولكن كيف
 لليلي الأخيلية أن تعرف هذا و كان بينها وبين توبه ذلك الحب ،
 والحب يعمى ويصم ؟ فما أن يلغها قتله حتى أخذت ترثيه وتبكيه
 بكاء الأبطال وتصوره في رئتها صورة عظماء الرجال ، وكانت تند
 على معاوية وعلى عبد الملك بن مروان وعلى الحجاج بن يوسف
 وتفاخر به عندهم ، فيرضون عن مفاخرتها به ويجيزونها عليه ، لما
 لهم من المآرب السياسية في عودة القبائل العربية بعد إسلامها كما كانت

(١) الرواية في هنا مضطربة ، فرة تذكر السليل في هذا ، ومرة تذكر أباه
 ثورا وأنه هو الذي أخذ ثاره .

عليه في جاھلیتھا وهذا إلى شئ من العنجهیة العرییة كان عندھم ولم يقلع الإسلام جذوره من نفوسيھم .

ومن هذا أنها وفت على معاویة فقال لها : ويحك يا لیلی ، أکما يقول الناس كان توبۃ ؟ قالت : يا أمیر المؤمنین ، ليس کل ما يقول الناس حقا ، والناس شجرة بفنی ، يحسدون أهل النعم حيث كانت وعلى من كانت ، ولقد كان يا أمیر المؤمنین سبط البنان ، حديد اللسان ، شجاً للأقران ، كريم المخبر ، عفیف المثزر ، جميل المنظر ، وهو يا أمیر المؤمنین كما قلت ، ولم أتعذر الحق وعلیی فیه :

بعيده التری لا يبلغ القوم قعره ألد ملد يغلب الحق باطله (۱)
إذا حل ركب في جماد وظله ليمعنهم مما تخاف نوازله
جاهم بنصل السيف من كل فادح
يخافونه حتى تموت خصـاء الله (۲)
قال لها : ويحك ، يزعم الناس أنه كان عاهرا خاربا . فقالت
من ساعتها :

معاذ لهی كان والله سیداً جواداً على العلات بما نوافله (۳)
عفیفاً بعيد الهم صلبنا قناته جیلاً محبنا قلیلاً غواصاً
بیت قریب العین من بات جاره وبیضھی بخیر ضیفه ومنازله

(۱) ألد : شدید الخصومة لا يزيغ إلى الحق من لد الثالثي ، وملد اسم فاعل من ألد يعني شدید الخصومة على التأکید .

(۲) خصائله : جمع خصیلة وهي كل حمة فيها عصب .

(۳) العلات جمع علة وهي الحدث يشغل صاحبه .

قال لها: ويحك يا ليلي ، لقد جزت بتوة قدره . فقالت : والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أنني مقصورة في نعمته ، وإنني لا أبلغ كنه ما هو أهله . فأمر لها بجائزه عظيمة ، وكأنني به قد اقتنع برأيها فيه ، مع أنه كان يكفيه قولهما فيه - ألد ملد يغلب الحق باطله - لأن هذا ليس من الإسلام في شيء .

وكذلك وفدت على الحجاج بن يوسف تمدحه لأخذ جوازه ، فلما دخلت عليه قال لها : كيف خلقت قومك ؟ قالت : تركتهم في حال خصب وأمن ودعة ، أما الخصب ففي الأموال والكلام ، وأما الأمان فقد أنعم الله عز وجل بذلك ، وأما الدعة فقد خامرهم من خوفك ما أصلح بينهم . ثم قالت : ألا أنشدك . فقال لها : إذا شئت :

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما إلـ
منايا بكتـ الله حيث يراها
إذا هبط الحجاج أرضـا صريحةـ
 تتبع أقصـى دائـها فـشفـها
شفـها من الداء العـضـالـ الـذـىـ بهاـ
غـلامـ إـذاـ هـزـ القـناـةـ سـقاـهاـ (1)
سـقاـهاـ دـماءـ المـارـقـينـ وـعـلـمـهاـ
إـذاـ جـعـثـ يـوـمـاـ وـخـيـفـ أـذـاهـاـ (2)

(1) القناة : الرع .

(2) عليها : سقاها نابية

فلياً قالت - غلام إذا هز القناة سقاها - قال : لا تقولي غلام ،
قولي همام . وقالت أيضاً في مدحه :

حجاج أنت الذي لا فوقه أحد
إلا الخليفة والمستغفر الصمد
حجاج أنت سنان الحرب إن نجت
وأنت للناس في الداجي لنا تقد^(١)

فقال لها : أنشدتنا ما قلت في توبه . فأنشدته قوله :
فإن تكن القتلى بواء فإنكم
فني ما قتلت آل عوف بن عامر^(٢)
فني كان أحيا من فتاة حية
وأشيع من ليث بخفان خادر^(٣)
فنعم الفتى إن كان توبه فاجرًا
وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر

فقال لها أسماء بن خارجة الفزارى : أيتها المرأة . إنك لتصفين هذا
الرجل بشيء ما تعرفه العرب فيه . فقالت : أيتها الرجل . هل رأيت
توبه قط ؟ قال : لا . فقالت : أما والله لورأيتها لوددت أن كل
عاتق في بيتك حامل منه . فكأنما فقيه في وجهه أسماء حب الرمان
حين سمع هذا . فقال له الحجاج : وما كان لاته ولها . ثم أجزل
صلتها .

(١) سنان الحرب : رمهها ، وتقد : تضيأ أي تظهر ماخفي من الأمور .

(٢) بواء : دماءها متساوية .

(٣) خفان : مؤسدة ، وخاردر : مقيم في عربته .

وهكذا وجدتها الحجاج ترفعه في مدحها حتى تجعله في المرتبة
الثالثة بعد الله تعالى وخليفة بنى أمية . وتنسى علماء الأمة وصلحاءها
من كانوا لا يرضون عنها ولا عن توبة ولا عن الحجاج . فلم يجد
إلا أن ينصرها على أسماء بن خارجة حين أبدى رأيه في توبة ولم
يرض في أدب عن جماوتها الحدّ في أمره . فأسمعته من قوتها الفاحش
ما أسمعته .

وكذلك وفدت على عبد الملك بن مروان فدخلت أولاً على
زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية . فدخل عبد الملك على زوجته
فرآها وكانت امرأة بدوية فأنكرها وقال لها : من أنت ؟ قالت :
أنا الوالمة الحرّي ليلي الأخيلية . فقال لها : أنت التي تقويني :
أريقت جفان ابن الخليل فأصبحت
حياض الندى زلت بين المراتب^(١)

فقالت : أنا الذي أقول ذلك . فقال : فما أبقيت لنا ؟ قالت : الذي
أبقاء الله لك . قال : وما ذاك ؟ قالت : نسباً قرشياً . وعيشاً رخياً .
ولإمرة مطاعة . فقال : أفردته بالكرم . فقالت أفردته بما أفرده
الله به .

فقالت عاتكة : إنها قد جاءت تستعين بنا عليك في عين تسقيها
وتتحمّلها . ولست ليزيد إن شفعتها في شيء حاجتها لتقدّيمها أعرّاً يا
جلقاً على أمير المؤمنين .

(١) الخليل هو كعب بن ربيعة بن عقيل من آباء توبة .

فوثبت ليلي فقامت على رجلها غاضبة لقولها - أعرابياً جلفاً -
وأندفعت تقول :

ستحملني ورحلي ذات رخد
عليها بنت آباء كرام^(١)
إذا جعلت سواد الشام جنباً
وغلق دونها باب الشام
فليس بعائد أبداً إليهم
ذوو الحاجات في غلس الظلام
أعانتك لو رأيت غداة بنا
عزاء النفس عنكم واعتزامي
إذن لعلمت واستيقنت أني
مشينة ولم ترعى ذمائي
أجعل مثل توبة في نداء
أبا الذبان فوه الدهر دام^(٢)
معاذ الله ما عفت برحلي
تغذ السير للبلد التهامي^(٣)
أقلت خليفة فسواء أحجى
يامصرته وأولى بالشام^(٤)

(١) وخد: سير سريح.

(٢) أبو الذبان كنية عبد الملك لأن الذبان كانت تهافت على فيه لما ذكرته

(٣) تغذ السير : تسرعه ، والبلد التهامي مكة .

(٤) لثم الرجل والثثم شد اللثام على أنه أو فه تمنى لئام الملك كما ذكرت في
البيت بعده .

لثام الملك حين تعد بكر
ذوو الأخطار والمطوي الحسام^(١)

وكل من عبد الملك وليلي منحرف في هذا عن الجادة ، وكل منهما لم يغضب الله أو للحق حين غضب ، فهو قد غضب عليها لأنها أفردت توبة بالسُّكْرَمِ ولم تبق له وهو الملك الذي لا يذكر توبه بجانبه شيئاً ولو أنها لم تفرده بالسُّكْرَمِ لكان رأيه فيه مثل رأيها ، وهي لم تنقض إلا لأن عاتكها جعلت توبة أعز ايماناً جلفاً ، ولو أنها لم تقل هذا فيه لم يكن عبد الملك أباً للذبان ، بل كان في المنزلة عندها بعد الله تعالى ؛ كما قالت في مدح الحجاج :

حجاج أنت الذي لا فوقه أحد

لَا خَلِيفَةَ وَالْمُسْتَفْرِضَ الصَّمَدَ

وكل هذا الإطراء تلقى به في توبة الذي كان يعشقاً ، وكان زوجها لا يزال حياً ، ولم تزل مصرة عليه إلى أن وافتها منيتها ، ويروى في موتها أنها أقبلت من سفر فرت بقبره ومعها زوجها وهي في هودج لها ، فقالت : والله لا أربح حتى أسلم على توبه . فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى إلا أن تلم به ، فلما كثر ذلك منها تركها فصعدت أكمة عليها قبره ، فقالت : السلام عليك يا توبه . ثم حولت وجهها إلى القوم فقالت : ما عرفت له كذبة قط قبل هذا . فقالوا : وكيف ؟ قالت : أليس القائل :

(١) المطوي المنسوب إلى بلد الخط بتخفيف الباء لضرورة الشعر ، والحسام القاطع ، وعلمه تحرير عن المقطط الجسام ، وفي بعض الروايات : حين تعد كعب .

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت

على ودوني جندل وصفائح ^(١)

سلمت نسليم البشاشة أوزقا

إليها صدى من جانب القبر صائح ^(٢)

وأنبغط من ليلى بما لا أناه

ألا كل ما قرت به العين صالح

فما باله لم يسلم على كما قال ؟

وكان إلى جانب القبر يوم كامنة ، فلما رأت الهدوج
واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل ، فنفر فرمى بليلي على
رأسها فماتت من وقتها . فدفنتها إلى جنبه ، وقد ذكر صاحب
الأغاني أن هذا هو الصحيح في خبر موتها .

(١) الجندي : الصخر العظيم . والصفائح جمع صفيحة وهو الحجر العريض .

(٢) زقا الطائر صاح ، والصدى نوع من اليوم عظيم الرأس أينما درت أدار
رأسه قبلك ، وهو يأوي إلى الأماكن الخربة المظلمة ، ويسمى أيضاً الهامة وكانوا
يزعمون أنه يخلق من رأس المحتول ولا يزال بصيح في رأسه إذا لم يُؤخذ ناؤه

قصة سعد و معاد

كان سعد فقي من بني عذرة عشق بنت عممه سعاد ، وكانت من المبرزات في الجمال والحياء ، وله معها قصة قد تكون صحيحة وقد تكون موضوعة ، فمثل هذا قيل في قصة المجنون وليلي ، ولكنه تزوجها ولم يمنع منها كما منع المجنون من ليلاه ، وكان له مال فجعل ينفقه عليها حتى نفد ؛ فلما عجز عن الإنفاق عليها أراد أبوها أن يطلقها منه فأبى ، فشكاه إلى وال عليهم من قبل معاوية بن أبي سفيان فسبحته وضيق عليه السجن والقيود حتى طلقها كارها ، فدفع إلى أنها عشرة آلاف درهم وتزوج بها ، فذهب سعد إلى معاوية ليشكوه إليه ، وكان معاوية يجلس كل يوم لساع شكوى الناس ، فدخل عليه في جم وآخر مجلسه فيمن جلس أمامه لشكوى ، ثم قام فأنشد :

معاوى ياذا الحلم والفضل والعقل
وذا البر والإحسان والجود والبذل
أبيتك لما صاق في الأرض مسلكى
وأنكرت مما قد أصيّب به عقلى
فخرج كلّك الله عنى فاني
لقيت الذي لم يلده أحد قبلي

وخذلى هداك الله حق من الذى
 رمانى بسمه كان أهونه قتلى
 وكنت أرجى عدله إذ أتيته
 فـ كثـر تردادـي مع الحبس والـكـيل
 فـطلـقـها من جـوـلـهـ ما قد أصـابـيـنى
 فـهـذـاـ أـمـيرـ المـؤـمـنـينـ منـ العـدـلـ (١)
 فـاستـدـناـهـ مـعـاوـيـةـ مـنـهـ وـقـالـ لـهـ :ـ ماـشـأـكـ ؟ـ فـذـكـرـ لـهـ قـصـةـ وـالـيـهـ
 مـعـهـ ،ـ فـكـتـبـ مـعـاوـيـةـ إـلـيـهـ يـغـلـظـ عـلـيـهـ وـيـأـمـرـهـ بـالـتـخـلـىـ عـنـهـ ،ـ وـيـقـولـ
 فـ آخرـ الـكـتـابـ :ـ
 رـكـبـ ذـنـبـاـ عـظـيـماـ لـسـتـ أـعـرـفـهـ
 فـاسـتـغـفـرـ اللـهـ مـنـ جـورـ اـمـرـيـهـ زـانـيـ
 قدـ كـفـتـ تـشـبـهـ صـوـفـيـاـ لـهـ كـتـبـ
 مـنـ الـفـرـائـضـ أـوـ آـيـاتـ قـرـآنـ
 طـلـقـ سـعـادـ وـفـارـقـهاـ بـجـمـعـهـ
 وـأشـهـدـ عـلـىـ ذـاكـ نـصـراـ وـابـنـ ظـبـيـانـ
 فـطلـقـهاـ وـأـرـسـلـهـاـ إـلـيـهـ فـقـيـلـ إـنـ النـاسـ تـعـجـبـواـ مـنـ حـسـنـهاـ ،ـ وـقـالـواـ
 هـذـهـ لـاـ تـصـلـحـ لـأـعـرـابـيـ ،ـ إـنـاـ تـكـوـنـ لـأـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ .ـ
 فـعـجـبـ مـعـاوـيـةـ مـنـهـ حـيـنـ رـآـهـ ،ـ ثـمـ اـسـتـطـقـهاـ فـإـذـاـ هـىـ فـتـنـةـ ،ـ فـقـالـ
 لـابـنـ عـمـهاـ سـعـدـ :ـ هـلـ لـكـ فـعـوضـ عـنـهـ ؟ـ قـالـ :ـ نـعـمـ إـذـاـ بـانـ رـأـسـيـ
 عـنـ بـدـنـيـ .ـ ثـمـ أـنـشـدـ :

(١) هذا منه على سبيل الاستفهام الانكار، أي أنه ليس من العدل.

لَا تجعلنِي والأمثال نضرب بِي
كالمستجير من الرمضان بالنار

اردد سعاد على حران مكتشب
يسى ويصبح فيهم وتدكاري
قيل : فغضب معاوية من ذلك ، وخيرها بينه وبين واليه وابن عمها ،
فأنشدت :

هذا وإن أصبح في أطمار
وكان في نقص من اليسار
أكبر عندي من أبي وجاري
وصاحب الدرهم والدينار

فقال معاوية : خذها لا يبارك الله لك فيها . وأمر أن تقيم إلى
تمام العدة ، فلما انقضت دفعها إليه مع ناقة وعشرة ألف دينار .

وكان للأستاذ علي الجندي مقال في هذه القصة نشره في مجلة
الرسالة ، وقد وجد فيها مجالا واسعا للتحدث عن البدو في حبهم
وعفتهم وزواجهم وعاداتهم ، ولم يقتصر فيها على حوارتها ، بل كان
للخيال حظ عظيم في مقاله ، ولكنه فيما ذكر خيال يساري الحقيقة
في الصدق ، لأنها يتكل ، عليها وينشق منها ، وإن كان قد توسع في
بعض المواقف فأنطق سعدا شعرا لم يقله ، لأن المقام يحتم ذلك ،
وأدب القصة يبيح هذا التوسيع .

فلقت نظري ما ذكره في مقاله من أن والي معاوية الذي اغتصب

سعاد من سعد هو مروان بن الحكم كما لفته أيضاً هذا البيت :

قد كنت تشبه صوفيا له كتب

من الفرائض أو آيات قرآن

لأن مروان بن الحكم لم يكن رجلاً مفتوناً مدللاً بنفسه كما ذكر الأستاذ الجندي ، بل كان رجلاً كبيراً يطمح إلى ما يطمح إليه كبار الرجال ، ولا يصح أن يقع في مثل تلك الصغائر ، وكان ذا عقل ودهاء وسياسة ، وقد اشتغل بالسياسة العالية من شبابه إلى كبره ، فكان مشير عثمان بن عفان ووزيره في خلافته وكان نداً في السياسة لأمثال علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم ، ولم يزل يطمح إلى أبعد الالفايات ، ويعمل على أن يظفر بملك المسلمين ، حتى وصل إلى ما كان يطمح إليه من ذلك ، وكان المؤسس الثاني لدولة بنى أمية ، لأنها كانت تذهب بعد موته معاوية وابنه يزيد ، حتى إنها لم يبق لها إلا ملك الشام وما إليه ، فلم يزل يقاوم عبد الله بن الزبير هو وابنه عبد الملك من بعده ، حتى أعادوا الدولة الأموية إلى مثل ما كانت عليه ، فكانت هي الدولة الإسلامية الوحيدة إلى أن تغلبت عليها الدولة العباسية ، فانحصر ملكها في بلاد الأندلس ، وكان لها فيه ملك يسامي عظمة ملك الدولة العباسية في المشرق ؛ فمثل هذا الرجل الكبير لا يصح أن يقع في الصغيرة السابقة التي وردت بتلك القصة ، وله مكانته وزعامته في بنى أمية ، ولا يصح أن يظهر فيها بظهور الوالي الذي لـ معاوية ؟ وهو الذي كان يسامي في نسبه

وزعمته تلك الأسرة الحاكمة من قريش ، ولهذا كان معاوية يلايه ويداريه ، حتى إنه كما عهد لابنه يزيد كتب إليه يأمره باخذ البيعة له على أهل المدينة ، فأبى هذا عليه وأباه أهل المدينة معه ، ثم ذهب إليه مغاضبا في نفر من أهل بيته ، وأنكر عليه خروجه على ما سار عليه الخلفاء قبله من جعل ذلك الأمر شورى بين المسلمين ، وتأمیره للصبيان عليهم ، فاهم معاوية أمره ، واشترى رضاه بالمال ، ففرض له ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة ، وليسكن بعد هذا مروان ما يكون ، لأنني استكثرت هذا عليه لأنه كان رجلا كبيرا لا يقع في مثل تلك الصغائر ؛ لا لأنه كان رجلا عادلا يتزه عن الظلم .

وقد حملني استبعادي لوقوع هذا من مروان بن الحكم على صراجمة القصة في مظانها ، فرجعت إليها في كتاب - تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق - للشيخ الضرب الفيلسوف داود الانطاكي الطيب المعروف ؛ وصاحب التذكرة المشهورة في الطب ؛ فوجدته يذكّر أن سعدا لما أملق رفع أبوها أمره إلى ابن أم الحكم ؛ ففعل معه ما فعل مما سبق : لا إلى مروان بن الحكم .

وهذا عندى هو الحق في تلك القصة إن كانت صحيحة ؛ وابن أم الحكم هو عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي ، اشتهر بكنته المنسوب فيها إلى أم الحكم بنت أبي سفيان بن حرب ؛ وكان حاله معاوية يوليه بعض أعماله ؛ فيسى السيرة فيها ؛ فمثله هو الذي يلقي أن ينسب إليه الصغيرة الساقية في تلك القصة لامروان بن الحكم

وإني أرجح أن الرواية التي ورد فيها اسمه نشأت عن الاشتباه بين
الاسمين ؛ وللعمول في هذا أن يشتبه اسم ابن أم الحكم بمروان
بن الحكم ؛ لأن الثاني أشهر من الأول ؛ فمن القريب جداً أن
يكون بعض الرواية أو النسخة أبدى الثاني بالاول ؛ لأنَّه لم يسمع
إلا به ؛ لشهرته بين ملوك بنى أمية .

وأما البيت السابق فوضعه في تلك القصة ظاهر كل الظهور، لأن
نظام التصوف لم يكن قد حدث في عصر معاوية ، ولم يكن فيه
كتب صوفية يحملها التصوف ، وهي كتب الأوراد ونحوها مما
يفرضه التصوف على نفسه ، وقد قيل إن السكتب في البيت جمع كتاب
يعنى مكتوب أي مفروض ، فيكون المعنى له مفروضات من
القرائض ؛ أي ما فرضه على نفسه من الأوراد ونحوها ؛ ولاشك
أن حمل السكتب على هذا بعيد ؛ على أنه لوضوح فإنه يقى أن هذا
النظام من التصوف لم يكن معروفاً في عصر معاوية ، بل لم يكن
معروفاً فيه اسم التصوف وما اشتقت منه .

ويمكن أن يحتاج بهذا البيت على وضع تلك القصة ؛ ومثله بقية
اشعارها الركيكة ؛ لأنها ليست في درجة شعر هذا العصر على إطلاقه
ولا في درجة الشعر العذري الذي ينسب فيه إلى جميل بنتنة وكثير
عزة ومجنون ليلي ونحوهم .

على أن الرواية التي صحيحتها في نسبة الصغيرة السابقة إلى ابن
أم الحكم لا إلى مروان بن الحكم ؛ قد نسبت إلى معاوية بن أبي
سفيان بمحاولته الوقوع فيها ، وهو أكبر أيضاً من أن يقع في ذلك

فتكون هذه القصة ضعيفة في سبکها وشعرها ، ويكون في هذا
ما فيه من الدلالة على وضعها ، والظاهر أنها موضوعة في عصر متاخر
من العصور التي اشتهر فيها وضع أمثال تلك الروايات ، وإن كانت
لا تنزل إلى درجة العامية التي نزلت إليه تلك الروايات في هذه
العصور ، والله أعلم .

فهرس الكتاب

الصفحة		الموضوع
٣		خطبة الكتاب
٤		مدرسة أبي تمام
٥	٥ - خصائص مدرسة أبي تمام	
١٣	١٣ - أولى شعراً بهذه المدرسة بالزمام	
١٥		أبو تمام .
١٦	١٦ - نسبه وموالده	
٢٠	٢٠ - منزلته في الشعر	
٢٣	٢٣ - مختارات من شعره	
٢٥	٢٥ - وصية أبي تمام للباحثى .	
٢٨		الباحثى .
٢٨	٢٨ - نسبه وموالده - نشأته وسيرته	
٣٦	٣٦ - منزلته في الشعر	
٤٠	٤٠ - مختارات من شعره	
٤٠	٤٠ - نسبه وموالده - نشأته وسيرته	
٤٣	٤٣ - منزلته في الشعر	
٤٥	٤٥ - مختارات من شعره	

- ٥١ الشريف الرضي .
- ٥١ - نسبة وموالده - نشأته وسيرته
- ٥٨ - منزلته في الشعر ٥٨ - مختارات من شعره
- ٧٨ أبو العلاء المعري .
- ٧٨ - نسبة وموالده - نشأته وسيرته
- ٧٩ - منزلته في الشعر والنثر ٨٢ - عقيدته الدينية
- ٨٤ - مختارات في شعره ٩١ - موازنة بين أبي العلاء والمتين
- ٩٣ ملحق بالكتاب .
- ٩٣ - الفرسان الشعراء في الجاهلية والإسلام
- ١١٧ - قصة سعد وسعاد .



للمؤلف

١ — مختارات الشعر الجاهلي

بتحقيق وشرح فضيلته

الثمن ٣٠ قرشاً

٢ — تاريخ الإصلاح في الأزهر

وصفحات من الجهاد في الإصلاح

الثمن ٦٠ قرشاً

٣ — بسط سامع المسامر

الرواية الصحيحة لديوان مجنون ليلي لابن طولون

بتحقيق وشرح فضيلته

٤ — الوسيط :

في تاريخ الفلسفة الإسلامية

(تم الكتاب — بحمد الله و توفيقه)

